شخصيات مجمعية

فى الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٦ من أبريل سنة ١٩٨٣ م أقام المجمع حفل استقبال عضوه الجديد الأستاذ محمود محمد شاكر ، وها هى ذى الكلمات التى ألقيت فى الحفل :

١ ـ كلمة الافتتاح

للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

فى استقبال الأستاذ : محمود محمد شاكر

أيها السيدات والسادة :

يستقبل المجمع اليوم شيخا جليلا ، وزميلا كريما ، تابعنا بحثه ودرسه عن بعد ، ويسعدنا أن يسهم معنا كما عودنا من قبل فى خدمة اللغة والنهوض بها ، ونحن نعول عليه فى ذلك التعويل الذى يتناسب ومقامه وماضيه ودرسه وبحثه ، وتحقيقه وتمحيصه .

وسيستقبله باسم المجمع الزميل الأستاذ عبد السلام هارون فليتفضل .

٢ ـ كلمة الأستاذ عبد السلام هارون

عبقرى بارع قل أن يجود الزمان بمثله ، إنه أخى ولدتى وتربى وحتى .. كنا متقاربين فى الميلاد ، سبق مولدى فى الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة ١٣٢٦ هومولده فى العاشر من المحرم فى السنة التى تليها ، فى بلد طيب واحد هو مدينة الإسكندرية ، وجمعتنا الأيام من بعد هذا فى رحاب القاهرة وملاعبها ، وقضينا عهد الصبا الزاهر ما بين أحيـاء الحلمية والمغربلين وسوق السلاح ومحمد على نستنشق أطيب أنسام حياة جديدة .. حتى إذا شببنا عن الطوق ، شببنا معا ، تجمعنا آصرة القرابة الحميمة بين والدى ووالدته الأخت الشقيقة له ، وآصرة الصداقة الوثيقة بين والدينا غفر الله لهما .

وقضينا عهود الدراسة ، كل فى سبيله ، تجمعنا بين ذلك أوقات الفراغ فى شىء من الدرس أو اللهو البرىء لا نفتر فيه إلا حيث يأوى كل منا إلى داره .

وعشنا دهرا واحدا مفعما بالثورات السياسية والثقافية والدينية ، وثرنا ، وثرنا ، وكان أخى محمود طرازا نادرا فى الثورة على هذا كله ، فكنا لا نستطيع أن نكفكف من غلوائه وقد خلقه الله بركاناً ثائرا .

ولعل أول ثورة له ثورته على نظام التعليم الدنلوبى ، إذ وجد نفسه ، وهو فى السنة الأولى فى مدرسة والدة عباس الابتدائية ، مفتونا بدراسة اللغة الإنجليزية ، بحروفها الغريبة النطق التى ألهته عن لغته العربية ، وقد أصبح فيها ضعيفا جدا على حد قـوله ، لا يكـاد يجتاز امتحانها إلا على عسر وعلى شئ ... وحينما رسب فى امتحان الشهادة الابتدائية وأعاد السنة الرابعة وجد المجال فسيحا أمامه ليأخذ للغة العربية الحبيبة ثأرها . وكتب الله له الخير على أحد أبنـاء خاله ، هو شقيقى الأكبر أبو الفضل ، مد الله فى عمره ، حيث أهدى إليه ديوان المتنبى بشرح اليازجى . يقول محمود : فلم أكد أظفر به حتى جعلته وردى فى ليلى وفى نهارى حيث حفظته يومئذ ، وكأن عينا دفينة فى أعماق نفسى قد تفجرت تحت أطباق الجمود الجاثم ، وطفقت أنغام الشعر العربى تتردد فى جوانحى ، وكأنى لم أجهلها قط .

هذه هى البداية المعجزة لأخى محمود ، الذى أشهد كما قال بأنه حفظ ديوان المتنبى فى عام واحد ، هو عام رسوبه فى الشهادة الابتدائية ... وكثيرا ما كان الشر والداً للخير واليسر تاليا للعسر ، وإنما ينسكب نور الفجر من بعد إطباق الظلام .

وكنا إذ نلقى محمودا فى ذلك العهد لا نلقاه إلا والمتنبى فى يده منشدا لقصيدة ، أومترنماً أو معجبا بما يتراءى له من معانيه ، أو ما يلمع

له من جميل العبارة ودقيق الحكمة والعبرة حتى كدنا نحفظ ما حفظ، إلى ما كنا نحفظ من المعلقات أو الحماسة أو مقامات الحريرى أو صهاريج اللؤلؤ وغيرها ... ذلك عهد قد تقضى وذا عهد.

ويتابع أخى الأستاذ محمود، دراسته الثانوية جادا فى عنايته باللغة العربية، حيث يعقد صلته بإمام عظيم وأديب كبير، هو الشيخ سيد بن على المرصفى، ويتردد إلى دروسه المسائية فى جامع السلطان برقوق، ويدلف إليه فى عقر داره فيقرأ عليه فيها كامل المبرد، وحماسة أبى تمام، وشيئا من أمالى القالى وأشعار الهذليين ولم تنقطع صلته به إلا حين لقى ربه فى سنة ١٩٣١.

ويحصل محمود على البكالوريا العلمية فى سنة ١٩٢٥ وكان من المتوقع أن يواصل هذا الاتجاه العلمى كما يفعل الطلاب غيره، ولكن إيثاره للغته، وعصبيته لها ولما كان يحاول بها من هوان أو إبادة، جعله يأبى إلا أن يلتحق بكلية الآداب بقسم اللغة العربية دون زملائه فى الدراسة الثانوية جميعا. واستمر فى ذلك حولين كاملين كان فيهما على صراع ملح دائم مع الدكتور طه حسين فى قضية الشعر الجاهلى، غادر إثر انصرامهما الجامعة ... وكأنه وجد فى قرارة نفسه أنه سيلقى مهاجراً طيبا له فى بلاد الحجاز فسافر إليها مفعما بالأمل وأنشأ بناء على رغبة من أولى الأمر هناك مدرسة جدة السعودية الابتدائية، أنشأها إنشاء وعمل مديراً لها ... ولكن الحنين إلى الأدب، وإلى الكتابة والكلمة، يعاوده فيرجع إلى القاهرة متابعا ما كان منه من قبل من التحرير فى مجلتى الفتح والزهراء.

وكانت دار والده الإمام الشيخ محمد شاكر موردا كثير الزحام لعلية القوم من السياسيين والعلماء والأدباء، ورجال الأزهر والقضاء فقد كان من الرجال الذين لا تجاوزهم أصابع اليدين عدا. ويذكر له التاريخ أنه أول من عنى بتطوير الأزهر وتطبيق قانون النظام الذى صدر سنة ١٩١١ حينما كان قائما بوكالة الأزهر فعرف الناس للمرة الأولى فى مصر الأقسام النظامية للأزهر، مع بقاء الأقسام القديمة التى كانوا يلقبونها فى العرف بالنظام الحمجى. كما كان الشيخ من الأعضاء الظاهرين فى الجمعية التشريعية، ومن قبل ذلك كان قاضيا لقضاة السودان. وكان للشيخ الإمام مشاركة فسيحة فى التأليف والتحقيق، نذكر له منها بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد، ومقالاته التى تربو على المئتين عددا فى صحيفة المقطم يعرف شأنها وقدرها من عاصروه من العلماء والقراء.

فكانت مجالس والده هذه محكا لاتساع أفقه العلمى والوجدانى، وكانت معينا فياضا له ولنا جميعا، ولا نستطيع أن نغفل عن فضل شقيقه الأكبر المغفور له الشيخ أحمد شاكر علينا جميعا وعلى عصرنا الذى كنا نعيش فيه، فقد كان سباقا إلى نشر العلم وإحياء التراث والدفاع عن حوزة الدين ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وها هى ذى آثاره الغزيرة شاهدة بما كان

له من فضل ، وهو كان أستاذنا ومعلمنا غفر الله له .

لعل هذه صورة عابرة لمنشأ أخي محمود . أما الصورة الكاملة التي يقدم بها الأستاذ محمود إلى المجمع فإنها تفتقر إلى تسطير كثير من القول يحصى نشاطه الكتابي والتفكيري والتأليفي . ولقد راقتني كلمة صادقة من الزميل الكريم المهندس أحمد عبده الشرباصي يقول لي في عرض حديثه : « لو عهد إلى بتقديم الأستاذ محمود ، لاكتفيت بقولي إنه محمود شاكر ». ولعل ما صنعه أصدقاء محمود ، ومحبوه ومقدرو فضله من شتى بلادنا العربية والإسلامية من إهداء مجلد تذكاري إليه ، قاربت صفحاته سبعمائة صفحة ، ما يرسم صورة تقريبية لمكانته وفضله ومقداره .

وبحسبي هنا أن أشير إلى كتاباته وقصائده التي ظفرت بها المجلات والصحف منذ سنة ١٩٢٦ إلى عامنا هذا وقد جاوزت المئات وتستغرق عناوينها التي سجلت في المجلد التذكاري الذي قدم إليه بعنوان (دراسات عربيـــة وإسلامية) أربع عشرة صفحة كاملة بالحرف الصغير من ص ١٩ إلى ص ٣٢

كتب الأستاذ محمود في الزهراء وفي مجلة المقتطف ، والرسالة ، والثقافة ، والهلال ، والمجلة ، ومجلة العرب ، والكتاب ، والكاتب ، وفي صحف الأهرام ، والبلاغ واللواء ، والدستور وغيرها . وحينما تنازل الكاتب الكبير إسماعيل مظهر عن امتياز مجلة العصور ، ليصدرها الأستاذ محمود أسبوعية بعد أن كانت شهرية ، تمكن من إصـــدار عددين منها ، وحالت ظروف قاهرة دون المضي فيها.

وعندما شرع صديقه الأستاذ فؤاد صروف في اختيار وترجمة موضوعات مجلة المختار الإنجليزية لم يجد عوناً له في أول الأمر إلا محمود شاكر ، لما كان يعرفه عنه من ضلاعته في اللغة الإنجليزية إلى ما عرف عنه من فقه العربية ، فكان اشتراكه أول الأمر في تحريرها رفعاً لهذه المجلة وسبباً من أسباب نجاحها .

خلق محمود منذ صباه شاعراً رصين الشعر ، وبلغ الذروة في أشعاره في قصيدته الرمزية الخالدة « القوس العذراء » التي نظر فيها عن عرض إلى قصيدة الشماخ الزائية ، لينشيء ملحمة طويلة مستفيضة أودع فيها نظرته الخاصة إلى الحياة ونواميسها ، في رمز فلسفي . وقد صنع صديقه وتلميذه الدكتور إحسان عباس دراسة تحليلية لهذه الرمزية المسهبة أهداها إليه في المجلد التذكاري ، يقول فيها : «لا ريب عندي أن الشعر الحديث قد ضل كثيراً حين لم يهتد إلى القوس العذراء ، وأن الناقد الحديث قد سار في تلك الطريقة المضلة نفسها حين أغفل تلك القصيدة وليس من التجني أن أقول : إن الشعر الحديث كان يعشو إلى أضـــواء خادعة حين انقـــاد وراء التأثر بشعر أجنبي ورموز غريبـــة ولم يستطع أن يستكشف أدواته في التراث

كما فعلت « القوس العذراء» ولكن أنى له أن يفعل ذلك وهو وليد اجتهاد بضعة من تلامذة المدارس الذين شدوا شيئا من الشعر الإنجليزى فظنوا أنهم وقعوا على كنز دفين ليس فى أدبهم نظيره ، وأظن أكثر من بقى منهم حيا حتى اليوم لا يفهم قصيدة الشماخ إن أتيح له أن يقرأها فكيف بأن يستخلص منها رمزا لمفهومات معاصرة . ؟

ويكتب عليها الشاعر الخالد محمود حسن إسماعيل من شعره :

غنيتهـــا فانسعرت عالمـــا
من نغمـــة فى دنهـــا لم تزل

ذوبتهـــا نـــورا وشعشعتهـــا
عذراء فى خلد ضحاه أهل

ما هى قوس فى يدى نابل
وإنما ألواح سحـــر نزل

ويشحذ محمود قلمه أصدق ما يكون الشحذ ، ويسدده أصدق ما يكون التسديد حينما ينبرى لمجاهدة تجار السموم ، أعداء العروبة والدين ، من أمثال سلامة موسى ولويس عوض فى كتابه « أباطيل وأسمار » فنرى عجبا فى الأسلوب ، وعجبا فى الفكر ، وعجباً فى المنطق ، ولا نزال نعجب لهذا الأسلوب الساخر فى جدية ، والجاد فى سخرية ، فهو يقول فى أحد هؤلاء: « أرأيت إلى الدمية التى تدير مفتاحها لتملأها فإذا هى تحرك يديها وتمشى برجليها ، وتترنح أحياناً وتعتدل ، وتختال أحياناً وتستقيم ، وتبتسم حينا وتوشك تبكى حيناً آخر وتفتح عينيها تارة وتغمض جفنيها تارة أخرى ، ومحركها فى خلال ذلك قارٌّ لا يبالى ، ولا عليه ألا يتدخل فى أعمالها لأنها قلما تخطىء فى عمل» .

ولست أدرى كيف غفل القوم عن تلقيب محمود بأمير الكتابة الساحرة : وإن كان مستقبل التاريخ يضمر له هذا اللقب فيما يضمره .

ويختار محمود لكتابه هذا العنوان « أباطيل وأسمار » انتزاعاً من قول رهين المحبسين :

هل صح قول من الحاكى فنقبله
أم كل ذاك أباطيل وأسمار

أما العقول فقالت : إنه كذب
والعقل غرس له بالصدق أثمار

أما فصوله فإنها تحمل عنوانات يزينها الابتكار : ليس حسناً ، ثم : بل معيبا ، وأخرى بل قبيحاً ، بل شفيعاً ، لا تنقضى ، هذه هى القضية : وهذا هو تاريخها ، وهذه هى أخبارها وهذه هى أخطارها ، وما أدراك ماهيه ، نار حامية ، أما بعد ، أمهلهم رويدا .

فكان هذا الكتاب ، أو هذه السلسلة المتتالية الحلقات . من المقالات ، هى وغيرها من كتاباته هى المتنفس لـــه فيما كظم نفسه الثائرة عليه ، مما رآه ويراه حوله من محاولات العدوان على التاريخ العربى والإسلامى ومبادئ الدين الحنيف

وكيان القومية العربية تحت أستار شيء يسمونه إصلاحاً وتجديداً وتطويراً .

وكثيرون لا يعلمون أن محمودا قد نأى بنفسه عن كبل الوظيفة وقيدها طوال حياته ، ما نالت منه وما نال منها إلا ما ينال حسو الطائر من ماء لجى فى بحر عظيم ، لكى تنطلق له حريته فيما يأخذ وفيما يدع ، ولينطلق هو لحريته حريصاً عليها معتزا بها . . . ولكن هذا كله لم يحمه من العدوان على حريته فيما ابتلى الناس به دهرا ، من ولوج على حريتهم . واقتحام على إرادتهم ، إبان سلطان مطلق . وذلك فى محاولتين اثنتين إحداهما على مدى تسعة أشهر من أوائل سنة ١٩٥٩ والأخرى على مدى ثمانية وعشرين شهراً بدأت فى آخر أغسطس من سنة ١٩٦٥ فى زمان كان يفر فيه المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه .

ولقد منحه ذلك العدوان الظالم قوة فوق قوة ، وحكمة فوق حكمة ، وصقالا من فوقه صقال .

وبعد فلست أدرى ماذا أصطفى وماذا أدع من جوانب أخى لأقدمه إلى جمهرة ممن يعرفون اسمه وقد لا يعرفون ما وراء ذلك من جهاد وجهاد . إن كثيرين من أساتذة الجامعات فى مصر وفى العالم العربى كله ليدينون له بالفضل ويعترفون له بالأستاذية ، بل يفخرون بأنهم ممن صنعهم فأحسن الصنع ، وصاغهم فأتقن الصوغ .

إن كتابه « أبو الطيب المتنبى » كان امتداداً لما بدأ به حياته من استظهار ديوان المتنبى فى السن المبكرة جداً ، كما أسلفت ، وكأنما أسرها فى نفسه أن يفى لصاحبه أبى الطيب وأن يلقى الضوء على جوانب أظلمت على الناس منه ، فقاموا يتخبطون فى عمياء إن عمدا وإن سهوا . . فصنفها سبع عشرة مقالة تحقيقية فى المقتطف ، وشح صدر كل منها بأبيات من شعر المتنبى مختارة لتكون عنوانا صادقاً مفسراً لما ينتويه من القول فى صلب المقالة ، فانتهج بذلك منهجاً علمياً فريداً ، يقدم فيه مجمل القضية ، من شعر صاحبه ، قبل أن يمضى فى التفصيل وفى البحث الأخير السابع عشر منها حين تناول القول فى مقتل أبى الطيب ، صدره بأبيات هى علامة على طريق البحث :

نحن بنو الموتى فما بالنا
نعاف ما لابد من شربه

يموت راعى الضأن فى جهله
ميتة جالينوس فى طبه

وظهرت المقالات مجموعة فى مجلد كامل هو هدية مجلة المقتطف فى يناير سنة ١٩٣٦ فى الاحتفال بانقضاء ألف عام على وفاة المتنبى .

وأعاد محمود نشرها مع تقديم تاريخى فى سفرين ، أودع فى أولهما ما كتبه هو فى المقتطف ، أما السفر الثانى فقد خصصه لما كان قد كتبه من قبل فى صحيفة البلاغ

اثنتى عشرة مقالة هى نقد علمى جرىءٌ لما ورد فى الكتاب الذى ألفه الدكتور طه حسين، وهو «مع المتنبى»، كما ضمنه الحوار الذى جرى بينه وبين الأستاذ سعيد الأفغانى حول نبوة المتنبى، وكلمة تقدير رائعة لصديقه الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعى يقول فيها عن محمود شاكر: إنه كتب تاريخ المتنبى ولم ينقله ... وهى عبارة ذات مغزى كبير.

وأما بعد فهذا يكشف كيف استطاع محمود أن يعلم نفسه، وأن يختار طعامه وشرابه من التراث الفكرى فى صباه وينتقيه مبرأ من الغثاثة والضآلة . . . ويتيح الفرصة أن نوازن بين ما اختاره هو لنفسه وما يختار اليوم للضحايا من أبنائنا فى دور العلم، إذ يقدم لهم من الطعام أردؤه وأكذبه، مسوخ ضيئلة حقاً من التراث العربى، يضيفون إليها أمشاجا قميئة من نتاج المعاصرة، يلدها مفتش اللغة، أو مراقب المنطقة، ويدور حولها البحث والنقد والصور البيانية وما إلى ذلك من الدروس والمصطلحات المخادعة ويظنون بطلابنا الضعف والتهالك، ويظنون ويمتد بهم الظن فينأون بهم عن ممارسة قواعد لغتهم على وجهها الصادق، ويتملقون طالب النحو بقولهم: سنقطع لك رأس هذه القواعد ثم نتبع رأسها الذنب، فلم يبق إلا صورة اللحم والدم.

وأما اللغة فإنها حنانيك، مفتحة الأبواب تقتحم فيها لغة الشارع فصول الدراسة لأننا نأبى لك أن تقابل الصعاب، فنعيا أمامك عن الجواب.

لقد كدت أن أضل عن موطن كبير من مواطن جهاد أخى محمود، هو ساحة تحقيق التراث الذى هو أخص خصائصه وهو العمل الذى يستوعب الآن فيما أعلم جل اهتمامه ونشاطه، وتحقيق التراث عنده تمتد جذوره إلى ما يقرب من نصف قرن، وأذكر أن أستاذنا محب الدين الخطيب جمعنا معاً على إخراج أدب الكاتب لابن قتيبة، وكان هذا أول عمل نشترك فيه معاً فى زمان الطلب والتلمذة، كان ذلك فى سنة ١٣٤٦هـ أى منذ سبع وخمسين سنة هجرية أو أربع وخمسين سنة ميلادية، وهى السنة التى اشترك فيها تفكيرنا كذلك فى إنشاء جمعية الشبان المسلمين وكان أخى محمود فى صدر المتحمسين لذلك بعد عرض الفكرة منى على الأستاذ محب الدين الخطيب وأحمد تيمور باشا؛ الذى لا أزال أذكر قبلته الحانية.

وسار أخى محمود بعد هذا فى خدمة كتب التراث، فنقرأ له «فضل العطاء على العسر لأبى هلال العسكرى» ثم نقرأ الجزء الأول من «إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع» وقد ذيله بفهارس دقيقة نفيسة؛

ثم كتاب «المكافأة وحسن العقبى» لأحمد ابن يوسف بن الداية الكاتب . . . ثم يلمع أمامنا الجهد الذى أتحف به الأستاذ محمود مكتبة التراث بكتاب ابن سلام « طبقات فحول الشعراء » فى طبعتين اثنتين ، نشراً علمياً موثقاً، بذل فيهما جهدا ذكياً فى جمع نصوص ابن سلام من نسختيه العتيقتين ومن كتاب أبى الفرج ، مع مقارنات تحقيقية دقيقة مستفيضة وتعليقات هى الغاية.

وإذا نظرنا إلى تفسير الطبرى فى طبعته العلمية المحققة وجدنا الجهد الصادق للأستاذ محمود شاكر مع مشاركة أخيه العلامة المغفور له الشيخ أحمد شاكر فى تخريج الأحاديث للأجزاء العشرة الأولى ، ومراجعة من الشيخ للأحاديث فقط فى الأجزاء من الحادى عشر إلى الثالث عشر ثم نلفيه منفردا بالأمر كله فى الجزأين الرابع عشر والخامس عشر ، إذ يقول الأستاذ محمود فى مقدمة الجزء الرابع عشر ، فى كلمة وفاء حزين : وبعد فقد أبليت شبابى وصدراً من كهولتى وأخى يومئذ ركن من العلم باذخ آوى إليه إذا حزبنى أمر أو ضاق على مسلك، فأصبحت فإذا الركن قد ساخ ، وإذا أنا قد أفردت إفراد السارى فى فلاة بغير دليل. كان نوراً يضىء الطريق ، فلما طفىء أصبحت فى ظلماء ينهانى سوادها أن أسير »

ومما يذكر للأستاذ محمود تحقيق الجزء الأول من كتاب «نسب قريش ومناقبها » ، لأبى عبد الله الزبير بن بكار ، وله كذلك مشاركة ذات قدر مع الأستاذ العلامة عبد العزيز الميمنى الراجكوتى فى تحقيق كتاب الوحشيات ، وهى المسماة بالحماسة الصغرى لأبى تمام .

وقد عثر الأستاذ محمود منذ نحو ثلاثين عاما على أجزاء مخطوط نادر فى الحديث هو كتاب « تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار» ، لابن جرير الطبرى صاحب التفسير ، والتاريخ ، فنشط لتحقيقه وإخراجه منذ عامين اثنين أتحف المكتبة العربية منه بمسند على بن أبى طالب ، ومسند عبد الله بن عباس ، وهو فى سبيل إتمام ما عثر عليه من هذا الكتاب الجليل لهذا العالم الجليل .

هذه الجهود العلمية التى بدأت منذ سنة ١٣٤٦ هـ إلى يومنا هذا ، ومنحت الحياة العلمية والأدبية والفكرية جمالا ونفعاً صادقاً ، وتوجت بالأمس بمنحه جائزة الدولة التقديرية فى الآداب كما توجت اليوم بكتبة اسمه فى سجل الخالدين وكان جديراً بهذه الكتبة منذ سنين وسنين ، تحدو بنا أن نهنئه ونهنىء العضوية به وأن نستقبله اليوم بما يستقبل به عالم ملأ طباق العروبة فضلا ونبلا ونفعاً ، مع دعواتنا له بتوفيق من الله وتأييد من عنده، إنه نعم المولى ونعم النصير .

الأستاذ عبد السلام هارون
الأمين العام للمجمع

كلمة الأستاذ محمود محمد شاكر

الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا . وصلّى الله على النبى الأمى الذى أرسله بلسان عربى مبين ليخرج الناس من الظلمات إلى النور . اللهم صلّ على محمد وعلى أبويه إبراهيم وإسماعيل وعلى سائر النبيين وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فقد وقعت فجأة فى الحرج والحيرة ولا حول ولا قوة إلا بالله . فأنتم أيها الرجال الأجلاء ، غير عامدين ولا متواطئين . أخذتمونى على غرة ، وقذفتم بى فى الموج ذى التيار والزبد ، وقلتم لى : اسبح وما أنا بسابح . وأنى لمثلى أن يسبح وقد عاش حبيسا مغمورا أكثر من أربعين سنة ، بين جدران من العزلة قد ضربتها على نفسى ، وبين رفوف كالتوابيت من حولى ، فيها رجال «صموت» لا ينطقون ولا يتحركون إلا أن آذن لهم . وإذنى لهم : أن أمد يدى إلى أحدهم ضارعا مستميحا ، أسأله أن يتفضل على بشىء من معروف يزيل شكى ، أو يرد عنى حيرتى أو يحيى مواتا فى نفسى أو يرفع غشاوة غطت على بصرى ، أو يجلو صدأ ران على بصيرتى ، ويتمادى الأمر بينى وبينه شيئا فشيئا ، فأحاوره ويحاورنى ، وأجاذبه أطراف الأحاديث ويجاذبنى ، حتى إذا بلغ منى الجهد ، طويت ما بينى وبينه ، ورددته إلى تابوته وإلى صمته محفوفا بالتكريم والشكر . وكلانا فى خلال ذلك وادع مطمئن ، فلا هو يملك - بحسن سجيته أن يعنف بى ، ولا أنا أرضى - لكرامته على - أن أعنف به . عاشرتهم جميعا ، وكلانا راض عن أخيه ، والأمر بينى وبينهم سهو ورهو رخاء ، هم يستجيبون لى لأنهم أهل السخاء والكرم ، وأنا أقصدهم وأعتفيهم ، لأنى أنا الفقير إليهم . لقد ألفت ذلك أكثر من أربعين سنة ، أن أعيش وحيدا معتزلا هادئا ، بين جدران عزلتى وانفرادى ، وبين توابيت أصحابى وإخوانى ، فى شئون تجرى بينى وبينهم محدودة بما حددته ، من إزالة شك أو رد حيرة ، أو إحياء موات ، أو رفع غشاوة أو جلاء صدأ . وكل ما عندى من العلم محدود أيضا بهذه الحدود .

فحين أخذتمونى ، فجأة وعلى غرة ، وقلتم : منذ اليوم ، أنت بيننا كأحدنا ، عضو فى مجمع اللغة العربية ، وخلف للسلف العظيم الدكتور أحمد بدوى ، إنما أخذتمونى من مكمنى بلا رحمة ، غير عامدين ولا متواطئين وألقيتم بى فى حومة الحرج والحيرة . نزعتم عنى لباسى القديم الذى ألفته وألفنى من الوحدة والعزلة والهدوء والصمت ، وما كدتم تفعلون حتى كستنى المفاجأة لباسا غريبا من الخوف والرهبة والضياع واللجلجة . ماذا أقول لكم ؟ لقد كرمتمونى تكريما يعجز لسانى عن المكافأة ولكنكم أيضا قد روعتمونى ترويعا يطلق لسانى

بالشكوى منكم. فإلى من أشكوكم؟ فإنما شكواى منكم هى شكواتى إليكم. فأنا أسألكم الإنصاف، وأربأ بكم عن قله الإنصاف.

فلم تزل قلة الإنصاف قاطعة
بين الرجال، ولو كانوا ذوى رحم

غفر الله لى ولكم.

وأول حرج وقعت فيه أن أجد نفسى مطالبا بالحديث عن السلف العظيم الدكتور أحمد بدوى رحمه الله، وكانت قد نشبت بينى وبينه محبة ومودة وصداقة، وأنا خلقت هكذا، لا أستطيع أن أكتب شيئا عن صاحب أو صديق اخترمته المنية، يعجز لسانى، وتأخذنى رهبة، وأجدنى كأنى مقبل على ظلمه لو تحدثت عنه. وهذا حرج على شديد. وحرج آخر هو أن الدكتور بدوى عالم آثارى مشهود له، عارف بلغة البرابى القديمة، أى المعابد والآثار العتيقة المنتشرة فى أرجاء مصر شمالها وجنوبها، وهى لغة مكتوبة بالقلم الهيروغليفى وأما أنا فعلمى كله محدود بلسان العرب وبالعلم العربى، فغير مستساغ من مثلى أن يقول شيئا فى أمر يجهله. وإذا قلت شيئا، فكل ما أستطيعه لن يخرج عن ترديد ما قاله من قبلى العارفون بقدره فى العلم الذى يحسنه ولا أحسن أنا شيئا منه. ومنذ أيام قليلة قرأت ما كتبه أستاذنا الدكتور محمد مهدى علام فى التعريف به، فى كتاب مجمع اللغة العربية فى ثلاثين عاما، ثم ما قاله الأستاذ الجليل محمد شفيق غربال فى استقباله فى مجمع اللغة فى الجلسة العاشرة للمؤتمر، فى ١٩٦٠/١/٢٥ فى الدورة السادسة والعشرين، ثم ما قاله الدكتور بدوى نفسه بعد انتخابه عضوا فى المجمع فى الدورة المذكورة آنفا. وما أنا بمستطيع أن أزيد على هذا شيئا يقال.

ولكن لابد مما ليس منه بد. وسأحاول أن أكذب سمعى وبصرى وعلمى، وأتمثل الدكتور بدوى جالسا حيا بيننا يسمع ما أقوله، ثم يتغاضى بفضله عن تقصيرى فى حقه، متسامحا فيما أنزلته به من الظلم.

فيما قبل سنة ١٩٥٠، كنت أسمع اسم الدكتور بدوى، ولا أذكر أنى كنت قرأت له إلا ما كتبه عن الهكسوس، ولكن كان يحدثنى عنه بعض من يعرفونه حديثا يغرينى بمعرفته ولكن عزلتى حجبت عنى كل وسيلة إلى هذه المعـــرفة. لم أنشط أنا إليها، ولكن الأقدار قد نشطت من حيث لا أعلم إلى تدبير اللقاء والمعرفة، ففى سنة ١٩٥١م، كنت مشغولا بشرح كتاب «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام الجمحى، عن نسخة عتيقة جدا كانت قد وقعت فى حوزتى، وكانت فيها زيادات كثيرة جدا على نسخة طبقات الشعراء لابن سلام المطبوعة بمطبعة بريل، فى مدينة ليدن سنة ١٩١٦م، والتى نشرها يوسف هل وكتب لها مقدمة بالألمانية. فلما فرغت من الشرح، وأزمعت أن أكتب مقدمة لنسختى التى سوف أنشرها، احتجت إلى أن أعرف ما قاله يوسف هل فى مقدمة نشرته. فلجأت

إلى صـــديقي الدكتور عبد الرحمن بدوى أستاذ الفلسفة ، فقرأت معه على عجل هذه المقدمة، وأملى على بترجمته بعض ما أحتاج إليه منها . وبعد زمن استبهمت على أشياء وقلقت نفسى، فدلنى أحد أصحابنا على الدكتور أحمد بدوى ، أستاذ التاريخ والآثار المصرية وحثنى على الاتصال به بالهاتف، فلم أفلت هذه الفرصة، واغتنمتها من فورى، فإذا هو إسراع وإقبال وحفاوة ، وغلبتنى الدهشة ، والتقينا وعند أول لقائنا ، أذهلنى الرجل وأخجلنى وأخبرنى أنه يعرفنى تمام المعرفة منذ سنة ١٩٢٦م ،وأنا أسمعه واجما لا أذكر من ذلك شيئا ولا أعرفه . ثم أسرع فأزال حيرتى فأخبرنى أننا دخلنا الجامعة معا، فى تلك السنة . كان هو طالبا فى قسم الآثار ، وكنت أنا طالبا فى قسم اللغة العربية ، وتقلبت بى الأمور فى الجامعة ما بين سنة ١٩٢٦م إلى سنة ١٩٢٨م، إلى أن فارقتها يومئذ إلى غير رجعة . ورأيته عالما بى وبهذا التقلب الذى عانيته . اجتمعنا سنتين فى أرض واحدة ، ولكننا لم نتعارف . فالآن تعارفنا ، وطال حديث الذكريات .

بدأنا نقرأ مقدمة يوسف هـــل ، وهى لا تتجاوز ثلاث عشرة صفحة . كانت باللغة الألمانية ، وكان يجيدها تمام الإجادة . فكان من الممكن أن يقرأها ويوقفنى على فحواها فى مجلس أو مجلسين على الأكثر ، ولكن الذى حدث كان غير ذلك ، فقد طالت مجالسنا، وتعددت ، كان يقرأ ما بين يديه جملة جملة، ويتأنى بى وهو يعيد على فحوى كل جملة منها ، متخيرا لألفاظ عبارته مرة بعد مرة ، مستدركا على نفسه فى المرة الثانية ما فلت منه فى الأولى ، كان كأنه مكلفا أن يترجم هذه المقدمة مكتوبة لتنشر . استمتعت أنا بهذه الأمانة وهذا الحرص استمتاعا لا يوصف ، ومع ذلك ، فكم من مرة كانت نفسى تحدثنى أن أطلب إليه أن يكف عن هذا التخير وهذا الاستدراك ، شفقة عليه أن يضيـــع وقته معى فى أمر هو أهون على وأزهد أن يضاع فيه كل هذا الوقت . لم أفعل ما حدثتنى به نفسى مرة واحدة ، لأن أناته فى القراءة والتفسير كانت تروعنى . أناة لا يستثيرها عجل ، بل يشوبها أحيانا شىء من التردد والتلوم ، كأنه كان يبحث فى خلال الألفاظ الألمانية عن معنى يوشك أن يتملص منه ، وكأنه فى الوقت نفسه كان يبحث فى دخيلة نفسه عن ألفاظ عربية تمسك المعانى وتحيطها حتى لا يند منها شىء . وكان يروعنى أيضا هذا القدر العظيم من الصبر ، صبره على ما كان يقرؤه ، وصبره علىّ وأنا أستوضح بعض معانى ما قرأ . وإذا استبهم علىّ شىء مما يفسره فقاطعته، توقف توقفا بصيرا ، يطول أو يقصر فى المراجعة ، ثم يقبل على موضحا مبينا أدق تفاصيل اللغة الألمانية بلا ملل وبلا عجلة . فمن يومئذ عرفت أنى أجاذب الحديث رجلا من العلماء المتثبتين ، لأنه بأناته وتوقفه وصبره وحسن تأتيه للمعانى ، مع هدوء النظر فيما بين يديه ، ومع حسن التأمل لما أفاجئه به

من المراجعة ، قد كشف لى عن قدر عظيم من الأمانة والحرص، وأيقنت أن هذا الرجل ينطوى على لب اللباب من أخلاق العلماء ، التى يجد الإنسان بعضها عند بعضهم ، ويفتقد بعضها أحيانا فيهم . رأيتها كلها متجمعة فيه مع صفاء فى النفس عجيب ، ورقة فى الطباع تأسر ، وحلاوة فى المعاشرة ، إذا ذقتهافما أنت بقادر على أن تنساها أو تنسى صاحبها .

وإذا كان هذا شأنه وخلقه فى أمر هين ، وهو تفسير مقدمة كتاب ، وإذا كانت هذه خصاله فى معالجة لغة كالألمانية . حية على ألسنة أهلها ، متداولة معروفة منطوقة ، ذات معاجم تفسر ألفاظها ، فما ظنك به وهو يعالج لغـة قد بادت وباد أهلهـا . وتآكلت الألسنة الناطقة بها تحت أطباق الثرى ، وليس لها معجم يفسرها ويضبطها وما هو إلا الكدح فى توهم معانى ألفاظها وتراكيب جملها ، ودلالة سياقها ، مع فاصل كثيف يفصل بينه وبينها عرضه آلاف السنين؟! لقد تمنيت يومئذ أن أصاحب هذا الرجل ، وأشاركه معاناته فى استنباط لغة البرابى القديمة التى تنسحب على مدى طويل من ألوف السنين ، مع التغير الفادح الذى لحقها ولا بد، على امتدادهذه الآبادالمتطاولة . معاناة لو تتبعتها معه وشهدت ما يمارسه فيها ، كانت خليقة أن تكشف لى جوانب أخرى من خصال العلماء وأخلاقهم التى اجتمعت فيه ، تستوجب له أضعـافا مضاعفة من الروعة ، ومن الإعجاب بصاحبها . والقليل الذى شهدته بنفسى معه ، دليل لا يخطىء يصدق هذا الذى كنت أتوقعه ، لو كتب لى أن أحقق أمنيتى . وقد رأيت الدكتور بدوى نفسه ، قد كشف لنا عن جانب من معاناته ، حين قاله لكم فى يوم استقباله فى المجمع .

« وأصارحكم ، أيها السادة مرة أخرى بأنا معشر المشتغلين بلسان فرعون ، لم نستطع أن نقومه فى كثير ، وإنما انحرفنا به انحرافاً ومسخناه مسخاً، سألت شيخنا العلامة أدلف إرمن ، وكان إمام المدرسة الفرعونية غير منازع ، ترى ما مدى استقامة ألسنتنا حين ننطق باللغة المصرية ؟ فأجاب : والله يابنى لو بعث آل فرعون وسمعونا نلوى ألسنتنا على نحو ما نفعل ، لانهالوا علينا ضربا بالسياط ولأخذونا بالنواصى والأقدام » .

فهذا سؤال واحد يزعجه ، من أسئلة كثيرة جداً ، كانت ولابد تنغص عليه معرفته بلسان البرابى القديمة ، وبتاريخ أهلها المتطاول ، وبشئون حياتهم التى عاشوها ، وعقائدهم التى كانوا يتداولونها وعلومهم التى بنوا عليها حضارتهم المعروفة فى القديم، هكذا أظن، وهذا السؤال وأشباهه من الأسئلة ، تدل على أنه كان عالماً متثبتا متخوفا من الزلل ، أمينا على ما يعلم وحريصاً على طلب اليقين . وأنا أظن ، بل هو فوق الظن ، أن قلقه ، وتثبته وتخوفه من الزلل وأمانته على ما يعلم ، وحرصه على طلب

اليقين ، كانت خصالا من خصال العلماء مغروزة فيه سجية لا اكتسابا وأنه كان لهذه الخصال من الغلبة عليه والسيطرة على نفسه يقبض قلمه قبضاً شديداً ،ويكفه كفا عن الكتابة والتأليف ، حتى صار قليل التأليف جداً فى هذا العلم الذى تميز به وعرف بانتسابه إليه ، وعد علما من أعلامه ، وسار حقيقة فى الناس بأنه من كبار أهله .

وخصلة أخرى من خصال هذا العالم الجليل ، قد لا يعدها بعضنا من خصال العلماء ولكنها من أعظم خصال الأفذاذ منهم بلاريب وإنما ينكرها من أنكرها ، لندرتها ، قبل كل شئ فى جمهور العلماء ، ثم لأنها خصلة خفية تبقى مستورة دائما ، مكفوفة عن الظهور المستعلن ، تحجبها وفرة العلم ووقاره وخفاؤه أحيانا عن الظهور وسأحاول أن أوجز طريق معرفتى بهذه الخصلة إيجازاً غير مخل .

ففى أوليات مجالسنا ، فى فجر معرفتى به رحمة الله عليه ، مللنا مرة وطوينا كتاب طبقات الشعراء ، وأخذنا نستروح بتجاذب الأحاديث ، وفى خلال ذلك أنبأته أن أبى وأسلافى من مدينة جرجا بصعيد مصر فأطرق إطراقة ، ثم عاد ينظر إلى كالمتثبت المتوسم ، نظرة خلتها وميض جمرة من خلال الرماد وكأنما رآنى الساعة لأول مرة ثم فاجأنى بحديث طويل فى تاريخ جرجا وغيرها من الأقاليم فى الأزمنة الموغلة فى القدم . بدا حديثا جافا عن أقاليم الصعيد وحدودها القديمة يتخلله أسماء ملوك وكهان وأصنام معبودة من دون الله وشيئا فشيئاً ، أصبح حديثه يترقرق حياة غنية متحركة رائعة حياة حية بقائدها وعمائرها وأهلها وحوادث أيامها . وبدالى أحمد بدوى كأنه يصور بلسانه حياة عاشها ، أو حياة لا يزال يعيش فيها ، وأما أنا ، فكأنى كنت أشهد بعينى هذه الحياة وهى تموج بأهلها ، وأيامها ولياليها ، على بساط من الأرض أتمثله أنا شاهدا مبصراً ، متأثراً بما أسمع وأرى وأشهد ، راعنى الرجل ، لم ترعنى وفرة علمه ولا ماكان يعرضه على من صور الآثار الباقيات ولا ما كان يصاحب ذلك من تفسير وبيان ، بل الذى راعنى ، وأخذ بنفسى ، وسد علىها المنافذ : هذه النفحة التى كانت تهب على من حديثه كأنها أنفاس نسيم الصبا فى ساعة السحر تحمل العطر والشذا ، وينعش مسها النفس والحسد ، نفحة من شاعر ملئ إهابه الشعر . كان يوماً عجباً وحديثاً عجبا فلما قرأت الجزء الأول من كتابه «فى موكب الشمس» لم أخطىء هذه النفحة المنعشة المتحركة ولكنى وجدتها مقروءة ، دون حقيقتها ، مسموعة حية على لسانه ، وبصوته ، وبألفاظه وبلهجته التى تدل على موطنه من صعيد مصر ، والتى التزم بها ، وأصر عليها ، ولم يفارقها ، ولم يتنكر لها طوال حياته رحمة الله عليه .

وبقيت عندى خصلة أخرى ، مما خبرته بنفسى من خصال هذا العالم الجليل ، وهى من أجل الخصال التى يندر وجودها فى كثير من العلماء ، ولا سيا فى زماننا هذا . بيد أنى

إذا أنا حاولت أن أقص قصة وقوفي عليها فيه على وجهها ، اقتضاني ذلك أن أسرد عليكم حديثاً طويلا جداً قد استغرق بيني وبينه عدة أيام وليال ، ولكن ليس هذا هو مانعي الأول من سردها على الحقيقة ، بل ما نعي الأول هو أني كنت الطرف المتكلم في هذه القصة ، وكان الدكتور بدوى هو الطرف المستمع ، وحديثي اليوم بينكم إنما هو عن السلف العظيم الذى جعلتموني خلفا له ، لا عن نفسي . وكذلك رميتم بي في حرج آخر فلو أنا أغفلت هذه الخصلة العظيمة التي وقفت عليها لظلمت صديقي ظلماً بواحاً لا يستره شيء ، ولا يخرجني من هذا الحرج إلا أن أومئ إليها إيماء دون تصريح أو بيان ، فقد هجم بنا الحديث مرة على شيء هو من صميم علمه ، وهو تاريخ حضارة الفراعين وموقعها من مسيرة الجنس البشرى .

طال الحديث بنا وتشعب أياما ، وكانت حجتي التي بنيت عليها ، قائمة على أصول واضحة بينة ، مأخوذة من الوثيقة الكبرى التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، والتي لم تبق على ظهر هذه الأرض وثيقة أخرى يمكن أن يعتمد عليها في تحديد الصورة الصحيحة لنشأة الجنس البشرى على الأرض أو في تحديد الخطوط الصحيحة لمسيرة الحياة البشرية بأممها وعقائدها وعلومها بين علو وانخفاض وسمو وانهيار ، وضعف وقوة . وهذه الوثيقة هي القرآن العظيم ، وبيانه الصحيح الثابت من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد استتبع الهجوم على هذا الموضوع كثيراً من المراجعة والاستدلال والقراءة الطويلة أحيانا ، وكنت أنا في الحقيقة أريد أن أحوز هذا العالم الجليل إلى جانبي ، فبذلت لذلك جهدا عنيفاً متتابعاً في مجالس متدانية ، أما صديقي الدكتور بدوى فكان أكثر وقته يستمع ويصغي ، وألمح في وجهه وفي عينيه الحد ، والتردد أو الشك أحيانا ، ولكن لم يقاطعني قط . وما هو إلا أذن صاغية لا غير .

وعجبت عجباً شديداً لأني كنت أتوقع أن يتكره وجهه لهذا الحديث ، أو أن يعترض ، أو أن يثور ، ولو مرة واحدة ، لأني في الحقيقة كنت كأني أهاجمه في صميم علمه أو كأني أحاول أن أقلب بعضه رأساً على عقب . ولكن لم يزد في آخر الأمر على أن سكت طويلا ، وأقبل على أكواب الشاى يشربها على مهل ، وبدا كأنه نسي الأمر كله ، كأنه لا يعنيه في شيء ، وبعد لأى ما فاجأني وهو يقول : أتمنى أن يكون بعض ما قلته صحيحاً نظراً ، بل هو ممكن عقلا على الأقل . ثم سكت طويلا ، ثم عاد يقول : ولكن ماذا نفعل ؟ إنما نسير في بيداء ليلها كنهارها .

أما أنا فقد أخذت بحسن استماعه للحديث وبهدوء نفسه وصفائها ، فهذه خصلة من خصال قليل من العلماء المتثبتين ، يندر فيهم من

يصبر عليها، ويأخذ نفسه بها أو يملك على الأقل أن يتكلفها ساعة، فضلا عن ساعات طوال وأيام. وما ذكرت هذا العالم الجليل، إلا ذكرت معه عبد الملك بن مروان، وكان عبد الملك، قبل أن يتولى ما تولى من سلطان الخلافة، معدوداً في علماء أهل المدينة، وزارها عمرو بن العاص رضى الله عنه، وخالطه مدة إقامته بها، فلما رحل إلى الشام ذكره عند معاوية رضى الله عنه، ووصفه له، فكان مما قاله: هو آخذ تارك «لثلاث» آخذ بقلوب الرجال إذا حدَّث، وبحسن الاستماع إذا حُدِّث وبأيسر الأمرين عليه إذا خولف، تارك للمراء، تارك لمقارنة اللئيم، تارك لما يعتذر منه.

رحم الله أخى وصديقى، كان عالماً إذا التمست علمه، وصديقاً منجداً إذا التمست صداقته، وأنيساً جذاباً إذا التمست حسن العشرة. وكان لسانا حلوا صادقاً وإنسانا كريم الجوهر، كأنه لؤلؤة صافية لا يشوبها كدر، وأنى لمثلى أن يكون خلفا لمثله وأنا أخشى أن أكون قد قصرت أشد التقصير من حيث كنت أتوخى الوفاء، وأن أكون قد بخسته حقه وظلمته من حيث كنت أتحرى الإنصاف والعدل. وقد اضطررت إلى الحديث عن هذا السلف الجليل اضطرارا إلى فرط نفسى على هذا الحديث قهراً والتزمت أن لا أقول إلا ما خبرته فيه بنفسى، فى زمن قليل جدا لا يتيح لى أن أوفيه حقه، وأنا على يقين من أن هذا القدر، الذى خبرته بنفسى من خصاله، قليل فى جانب ما خبرتموه أنتم، بطول عشرتكم له من فضائله المذكورة الباقية. غفر الله لى ولكم.

بقى الحرج الأكبر الذى وقعت فيه، فقد تفضلتم على بضمى إلى مجمعكم الموقر، وخلتمونى صالحا للجلوس بينكم، فلا أدرى كيف أسدى الشكر لكم على حسن ظنكم بى. ولا أدرى ما أقول لأخى وابن خالى الأستاذ الكبير عبد السلام محمد هارون، الذى وقع هو أيضا فى الحرج، حين كلف بتقديمى إليكم، وإنما أوقعه فى الحرج هذا النسب الداخل بينى وبينه، بأى لسان أشكر، وأنا لا أملك إلا هذا اللسان العاجز الذى ألف الصمت دهرا طويلا. فاقبلوا بفضلكم عذرى وتغمدوا بكرمكم إساءة عجزى، وقد أحسنتم إلى بظهر الغيب، فأتموا إحسانكم على فى مشهدى وحضورى، وأقول لكم ما قال أبو عبادة للفتح بن خاقان:

ومثلك إن أبدى الفعال أعاده
وإن صنع المعروف زاد وتمَّما

وأنتم أيها الرجال الأجلاء، أهل ذلك وأكبر منه.

أما الآن وقد فرغت مما كنت وقد أعددته. وقد سمعت ما قاله فى أخى وابن خالى الأستاذ عبد السلام محمد هارون ، فقد كنت وأنا أسمعه ، أزور فى نفسى كلاما له ولكم ، ولكن قد طار منى الآن، فلم يبق منه شىء يمكن أن أقوله . ولكنى كأنى أسمع شيخ المعرة يهمس فى أذنى أن أنشدكم قوله فى نفسه ، وقد لقى من بعض الناس مثل الذى لقيته فقال :

من لى أن لا أقيم فى بلد أذكر فيه بغير ما يجب
يظن بى اليسر والديانة والعلـ ـم وبينى وبينها حجب
أقررت بالجهل ، وادعى فهمى قوم ، فأمرى وأمرهم عجب

أمرى وأمركم عجب ،

أيها الرجال الأجلاء ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الأستاذ محمود محمد شاكر
عضو المجمع

فى الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٥ من ربيع الآخر سنة ١٤٠٣ هـ الموافق ١٩ من يناير سنة ١٩٨٣ م ، اقام المجمع حفلا تأبين لفقيده المرحوم الدكتور محمد محمود الصياد عضو المجمع ، وها هى الكلمات التى القيت فى الحفل :

١ ـ كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور

رئيس المجمع

الدكتور محمد محمود الصياد

فى تأبين المغفور له :

سيداتى سادتى

فقيدنا العزيز الذى نودعه هو المرحوم الدكتور محمد محمود الصياد الذى جمع بين العلم والأدب . نودعه وفى العين دمعة وفى القلب حسرة ، نودعه لأنه فارقنا على عجل وكنا نود أن يطول استماعنا بروحه الهادئة وبسمته المعبرة وسماحته الجمة وعطائه السخى ولكن أبى القدر إلا أن يحرمنا منه ، فقد دخل المجمع عام سبع وسبعين وفارقه عام اثنين وثمانين ، تغمده الله برحمته وجزاه عنا خير الجزاء .

وسيلقى كلمة المجمع فيه . زميله وصديقه الدكتور سليمان حزين ، ويقوم الأستاذ محمد عبد الغنى حسن بإلقاء كلمة الشعر فى فقيدنا العزيز . ثم نختم الجلسة بكلمة الأسرة والكلمة الآن للأستاذ الدكتور سليمان حزين .

٢ ــ كلمة الأستاذ الدكتور سليمان حزين

عضـو المجمع

أخى محمد

ماكنت لأ تصور أنى سأقف منك هذا الموقف بل إننى أتصور دائماً أنك أنت الذى ستقف منى هذا الموقف ، لا أستطيع يا محمد أن أتحدث عنك حديث الغائب أو أتحدث عنك بضمير الغائب ، وإنما أتحدث إليك حديث المخاطب للمخاطب على النحو الذى اعتدته معك دائما . وما أظننى أستطيع أن أصدق نفسى حين أحيد عن مثل هذا الخطاب .

كنت يا محمد منذ أيام مع صديق لك من أيام الصبا حدثنى أنك كنت تخرج من قريتك إلى مدرستك الابتدائية فى السنطة ، وكنت تسعى إلى المدرسة دائماً على أتان تأبى إلا أن تسميها أو تصفها بأنها «الحمزى» وكانت أتانك تلك الحمزى تأبى إلا أن تسعى بالصبى دائماً فى المقدمة . وحتى عندما جاء يومك الأخير أبيت إلا أن تتقدم أقرانك وأساتذتك وأن تسير فى المقدمة لتلقى الله . . .كنت دائماً على هذه المسيرة فى دراستك كلها ، وفى عملك كله . أتذكر يا محمد حين لقيتك لأول مرة بعد عودتى من البعثة وكنت أنت فى سنواتك الأخيرة من الدراسة . وأتذكر أيضا أننا فى يوم من الأيام فكرنا فى كلية الآداب أن تسعى إلى السودان فى رحلة علمية مع طائفة من الطلاب .

كان ذلك فى عام ثمانيــة وثلاثين وتسعمائة وألف ، عندها كان السودان قد عاد إلى مصر وكانت مصر قد عادت إلى السودان ، بعد قطيعة افتعلها الاستعمار وكان طبيعيا أن يكون قسمك ، قسم الجغرافيا ، أول الأقسام سعيا بكلية الآداب إلى وصل ما أمر الله به أن يوصل بين مصر والسودان. يومها سألتك هل تأتى معى إلى السودان ؟ فكان الجواب سريعا ، إذ أنك قلت إنك لو استطعت أن تسعى إلى السودان مشياً على الأقدام لسعيت. أحسست إذا ذاك أن لك دوراً فى هذه الرحلة ، لم يكن بالضرورة دور الجغرافى ، فإنه قد كان هناك من الجغرافيين من هم أرسخ منك يا محمد فى ذلك الوقت . ولكنك كنت تسعى إلى السودان سعى الشاعر والأديب الناشىء . يومها لقيت أستاذنا وعميدنا طه حسين ، فذكرت له ما دار بينى وبينك فى ذلك اليوم ، وكان رده أن الصياد ينبغى أن يسافر مع الرحلة كشاعرها الشاب .

أتذكر يا محمد ، عندما وصلنا الخرطوم وسعيت بك إلى أم درمان ، المدينة الوطنية فى السودان ، وسعيت بك أيضا إلى مدرستى تلك التى تعلمت فيها أنا التعليم الابتدائى ،

وزرت معك فصلاً متواضعاً كنا نجلس فيه على برش الحصير فى ذلك الوقت فى المرحلة التحضيرية قبل الابتدائية ، وكنا نلبس الجلباب ، وكنا نلبس العمامة السودانية الصغيرة وعليها أو من تحتها طاقية مزركشة هى كل ما فى اللباس من زينة . وكأن هذا القول ألهمك يا محمد أن تعد أبياتا من الشعر تتغنى بها بعد ذلك فى أكثر من مناسبة فى السودان .

ثم أتذكر بعد ذلك أنى سعيت بك إلى الطابق العلوى من مبنى المدرسة وفيه فصول عادية ، فيها مقاعد للطلاب ، فأبيت أنت يومها إلا أن تجلس فى أحد تلك المقاعد ، ليذكرك ذلك بما سار عليه أستاذك ، ولعله كما قلت يومها أن يكون فألا حسنا فتسير على نهجه فى دراسة الجغرافيا فى بعض ما يقبل من أيام .

أتذكر يا محمد حين التقينا فى مساء ذلك اليــوم فى نادى الخريجين بأم درمان ، وكان على رأس النادى إذا ذاك إسماعيل الأزهرى ، وألقيت أنت قصيدة فى الرباط بين مصر والسودان على طول نهر النيل ، وذكرت فيها أن هذه الصلة هى التى جاءت بنا إذ ذاك إلى السودان فتجاوبت أصداء القاعة بأن حاشى لله أن نقطع ما أمر الله به به أن يوصل .

أتذكر يا محمد بعد ذلك عندما جاء امتحانك الأخير وكان علىّ أن أكون واحداً من الذين يصححون أوراقك : فأخذت ورقة من أوراق إجابتك ، وكانت نموذجاً فى الدقة ، بل وفى الأناقة ، أناقة فى الخط الجميل والأسلوب الجميل والإخراج الجميل لورقة الإجابة ، لأنك كنت تخرجها إخراجا ، وإننى لا أزال أذكر خطين رأسيين على جانبى كل صفحة لونهما أخضر ، وكان ذوقك جميلا فى اختيار ذلك اللون ، وأذكر كتابتك المنمقة بالقلم الأزرق والمداد الأزرق الذى يروق عين القارئين .

أتذكر يا محمد ، أو لعلك لا تذكر لأنك لم تعلم بذلك الذى جرى ، ولكننى أذكر أننى أخذت ورقتك تلك وطفت بها على الأساتذة رغم ما تقضى به النظم الجامعية فى الامتحانات من عدم إذاعة ظاهر الأوراق ولا باطنها ، ولكننى طفت بورقتك تلك على الأساتذة ، وكان تعليق واحد منهم وهو أستاذ لك وأستاذ لى (محمد عوض محمد رحمه الله) قال: إن مثل هذه الورقة ينبغى أن يوضع فى إطار ويحفظ بين وثائق الكلية ، فرددت عليه يا محمد إذ ذاك أن الأمر ليس أمر وثيقة ، وإنما هو أمر معلقة من المعلقات .

أتذكر يا محمد بعد أن تخرجت وسعيت للدراسة للماجستير أنك أردت أن تجاملنى على نحو لا أستطيع أن أرده ، فإنك قلت إذ ذاك إنك من أبناء الغربية ولكننى أنا من أبناء البحيرة وأبيت أنت إذ ذاك إلا أن تختار محافظتى – مديريتى إذ ذاك – لتكون

موضوع رسالتك : لم أتردد وماكنت لأستطيع أن أتردد . قبلت ذلك العرض وسعيت ماوسعنى الجهد أن أعاونك فى الدراسة. وكانت رسالتك نموذجية كما يمكن أن يقال ، كانت مثالا للبحث العلمى الميدانى ، ومثالا آخر لا أظن أن الطلاب جميعاً يعنون به ، ذلك أنك انتهزت الفرصة فى تجوالك فى محافظتى فتعرفت إلى الناس ، ووثقت الصلة بينك وبين أهلى من الفلاحين وكانت صلة أظن أنها استمرت معك حتى النهاية . وهذا نوع من الرباط الإنسانى الذى ينبغى أن يسعى إليه كل طالب بحث . ولكن أين هم أمثالك يا محمد ممن يسعون إلى الناس كما يسعون إلى العلم والمعرفة ؟

أتذكر يا محمد أنك عندما عدت من البعثة فى إنجلترا قلت لى إن أهم ماتستمسك به من ذكريات أنك تتلمذت بطريق مباشرة أو غير مباشرة على نفر من الأساتذة الذين تتلمذت أنا عليهم فى إنجلترا أيضا. وكان هذا رباطاً أضيف إلى ما هناك من رباط قوى سابق ، لازمنا سوياً طيلة حياتنا العاملة .

أتذكر يا محمد أنك عندما التحقت بالجامعة أستاذاً نصحتك أنا نصيحة لم تتبينها أنت إذا ذاك ، ولكنك تبينتها بعد ذلك قلت لك بالحرف الواحد : إن الفرنسيين يقولون إن الذى لا أعداء له لا أصدقاء له . العداوة والصداقة صنوان، بل أكاد أن أقول إنهما توأمان . كان لك أصدقاء كثيرون بين طلابك وبين نفر من أساتذتك ولكن العمل حين يبرز فيه صاحبه ، وحين يرقى إلى القمة وهو لا يزال صغيرا . . . هذا العمل يثير شيئاً من الغيرة إن لم يكن شيئاً من الحسد .

تلك طبيعة الناس ، بل تلك طبيعة الحياة . . . من هنا تألب عليك نفر فجيئنى تشكو إلىّ ، فذكرتك بذلك الحديث الذى دار بيننا ، ونصحتك أن تحنى رأسك للعاصفة . وقد كان ، وتركت الجامعة إلى حين .

أتذكر يا محمد أننى قلت لك إنك ستعود وإن الحق سيظهر ، وإننى أنا الذى سأتكفل بذلك ما استطعت إليه سبيلا . ذلك حقك علىّ يا محمد ، حق الطالب على الأستاذ ، وحق الصديق على الصديق ، وحق العالم على العالم ، وحق الأديب على كل من ناله حظ من الأدب . لقد كنت أنت يا محمد شاعراً منذ الصبى وكنت أنا ناظما لاأكثر ، ولكن نظمى ذلك ربطنى بك فجمع بيننا الأدب الذى يقال فيه أحيانا :

إن نفترق نسبا يؤلف بيننا
أدب أقمناه مقام الوالد

ودارت الأيام يا محمد ، واستطعت أن أضع يدى فى يد من أراد أن يعيد الحق إلى نصابه .

وكان إذ ذاك وزيراً من وزراء الثورة ، وعدت أنت يا محمد إلى رحاب الجامعة . . .عدت إلى كلية البنات فى جامعة عين

شمس لأنك لم تشأ أن تعود إلى كلية الآداب ؟ وكان الحق معك ، فهناك استطعت أن ترسى أسساً جديدة ، وأن تقوم على رأس قسم الجغرافيا ، وبالتالى أصبحت رئيسا لنفسك ؟

أتذكر يا محمد أن الأيام دارت أيضا وعرضت الجامعة (جامعة القاهرة) الجامعة الأم ، أن تعود بك إليها ، ولكننى نصحتك أن تعود إلى معهد الدراسات الإفريقية والسودانية لاعتبارات كثيرة يا محمد فطنت أنت لها وإن كانت فطنتك جاءت متأخرة بعض الشيء عن فطنة أخيك وأستاذك وزميلك . . . عدت إلى معهد الدراسات والبحوث الإفريقية والذى كان يعرف من قبل بمعهد الدراسات السودانية ؟ وكان لاثنين من أساتذتك وزملائك . . . كانت لهما يد فى إنشاء ذلك المعهد ، فأول من أنشأه كان أستاذنا محمد عوض محمد . . . وكان ذلك فى عام سبعة وأربعين وتسعمائة وألف . . . يومها دعانى محمد عوض ، وكنت لا أزال فى جامعة الإسكندرية ، فدعانى لأن أضع يدى فى يده لنتكاتف من أجل إنشاء المعهد ، وفعلا قام المعهد ودارت الأيام بعد ذلك بأكثر من عقد ، حين طلبت إليك أن تعود إلى معهد الدراسات الإفريقية وكانت إجابتك بأن رفعت يدك إلى رأسك ، ورفضت أنا إذ ذاك يا محمد أن تقبل هذا على أنه تحية ، وإنما تقبلته على أنه استجابة كريمة منك للجامعة وعدت أنت إلى رحابها ، حيث كان ينبغى أن تكون ؟

أتذكر يا محمد أن الإخاء والتعاون بيننا لم يكن مقصوراً على الجامعة وإنما امتد إلى النشاط العلمى فى كل مكان . امتد بصفة خاصة إلى الجمعية الجغرافية المصرية التى قبلت أنت أن تقوم على أمانتها العامة ، رغم ثقل العبء وضخامة المسئولية فى القيام على نشر الأعمال العلمية للجمعية . وقد كان معظم ما ننشره فى وقت من الأوقات باللغة الأجنبية ؛ ولكنك ما لبثت أن قلت لى إنه عيب على مثل جمعيتنا العريقة ألا يكون لها مجلة عربية ، فالمجلة الإفرنجية تطل على العالم الخارجى ، وشاهدة على التقدم العلمى فى مصر ، ولكن المجلة العربية ستكون مدرسة يدرس فيها أبناؤنا ويمارسون الكتابة باللغة العربية ، لغة للعلم . ولقد اضطلعت أنت بالمهمة وبلغت المجلة الجغرافية العربية مبلغها الذى جعل لها ذلك الاسم الفريد بين الجغرافيين العرب فى كل مكان .

أتذكر يا محمد عندما فكرنا فى سنة اثنتين وستين وتسعمائة وألف فى إنشاء الاتحاد الجغرافى بعد أن شاركناها فى إنشاء الاتحاد الجغرافى الآسيوى الإفريقى قبل ذلك بستة أعوام حين سعينا إذ ذاك إلى جامعة عليكره بالهند بعض إخواننا العرب الذين حضروا ذلك الاجتماع فى الهند فتداولنا فى أن نرتب أمورنا بحيث ننشئ اتحاداً جغرافياً عربياً أو اتحاداً للجغرافيين العرب على نسق الاتحاد الجغرافى الدولى ؟ وكان أن استطعنا أن ننشئ ذلك

الاتحاد العربى وطلبت منك إذ ذاك وألححت فى أن تكون أنت الأمين العام له . . . وفعلا كان .

أتذكر يا محمد أننا ذهبنا سوياً إلى العراق لحضور الاجتماع الثانى للاتحاد الجغرافى العربى ببغداد، بعدعشر سنين من قيام الاتحاد ، وقمت أنت على إعداد موضوع المؤتمر وتنسيق بحوثه ، حتى اجتمعنا فى بغداد وقمت أنا فى آخر المؤتمر لأشكر لكل من ساهم فى إعداد المؤتمر ، ولكننى أغفلت سمك يا محمد وكأن ذلك قد أصاب نفسك بشىء من الغضاضة فسألتنى أو بعبارة أصح سألتنى زوجك الكريمة ، فكان ردى أننى تعمدت ذلك لأننى لم أشأ أن أنال من سمو الرسالة التى يعمل لها الصياد بأن أشكره على مثل هذا العمل الذى لم يكن إلا ممارسة طبيعية لما جبل عليه محمد ... وعندما علمت أنت بردى هذا ابتسمت ابتسامة عريضة لا أزال أراها حتى الآن . وهكذا لم أكن مخطئاً فى فراستى فيك يا محمد فى يوم من الأيام .

هناك شىء يا محمد أريد أن أتحدث فيه الآن ، ولكننى أخشى أن تسمعه فى غيبتك الحاضرة . وسيحز فى نفسى بعض ما كان فى أيامك أو سنواتك الأخيرة. فمنذ ثلاثة أعوام كنت أنا أول من علم بمرضك الخطير ، وتحاملت على نفسى ، وكذبت عليك كذباً كنت أعلل نفسى وأتعزى دائما بأنه لم يكن أكثر من كذب أبيض ، فتجرعته النفس الصابرة حتى الثمالة . قلت لك إن الأمر بسيط وإن الغمة ستنجاب وإن الله سبحانه أكبر من أن يصيبك بما لا تطيق . وسعيت معك متمسكا بأهداب الأمل ... سعيت فى كل مكان من أجل سفرك إلى الخارج مرة ثم مرة ، ولكن قضاء الله لا يمكن رده لأنه لا يرد .

إننى يا محمد حين أتحدث إليك هذا الحديث العلنى الأخير ، سأستمر فى مناجاتك دائما يا محمد . والآن وقد سعيت أنت قبلنا للقاء وجه الله فاطلب إلى ربك أن يلحقنا بك فى زمرة الصالحين . وسلام عليك يا محمد يوم ولدت ويوم قبضت ويوم تبعث حيا إن شاء الله .

الدكتور سليمان حـزين
عضو المجمع

كلمة الشعر

ومتى كان للورى ما أرادوا ؟

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

[دمعة على الزميل المجمعى ، والعالم الجغرافى ، والشاعر الأديب الدكتور محمد محمود الصياد عضو مجمع اللغة العربية ، الذى طحنته علة شرسة قاسية ، تحملها بصبر المؤمن ، ولكنه فى النهاية ألقى السلاح . . .] .

نَحنُ زَرْعُ الدنْيا ونَحْنُ الحصادُ　　لم يدُمْ زارعٌ ، ولَا حصَّادْ . . .
جزِعتْ يا أخِي علَيْكَ نُفُوسٌ　　وبكَتْكَ الْعُيُـونُ والأَكبادُ
وانطوى مِن صُفوفنـا مجمعىٌّ　　كانَ (للضَّاد) منه ذُخرٌ وزادُ
وتولَّى أَخٌ لنـا . . . وتولَّتْ　　معهُ عُدَّةٌ لنـا وعتـاد . . .
هل غريبٌ إذا رثَتْه القوافى ؟　　هلْ عجيبٌ إذابكَتْهُ (الضاد)؟
آهِ للمـوت! ليس ينفعُ فيه　　حـذَرٌ منهُ ، أو يقِى استعداد
كل جُرحٍ له ضِمادٌ . . . ولكنْ　　ما لجُرْحِ الْمنونِ فينا ضِمَاد . . .

* * *

أَيهـا الرَّاحلُ المؤرق جَفنى　　بَعْـدَ منآكَ هَل يطيب الرقاد؟
عَبراتى على رحيـلك كُثْرٌ　　حَسَراتى عَلَى نَوَاكَ شِـداد
ذَهَبَ الأَمسُ بالذى كان فيه　　مِن بيـاضِ الْمُنى وحلَّ السواد

* * *

وهَنَ الْعَظْمُ يَوْم زُرْتَك .. لكنْ ... لم تَهِنْ مِنْ يَقِينِكَ الأَجْلادُ
ضعضع الدَّاءُ مَنكِبَيك ... ولكنْ ... لم يُضعضِع إيمانَكَ الإجهاد
وَعَلى وَجْهِكَ ابتسامةُ راضٍ ... لم تُسَوِّدْ حياتَهُ الأحقاد
مؤمنًا بالذى تَذُوقُ البرايا ... مُذعنًا للذى يُقاسى العباد
راقدًا فى انتظارِ داعى المنايا ... وَلَدَيْكَ الزوّارُ وَالعُوّاد
ضاقَ عن صَبركَ السَّريرُ مجالًا ... وتراخَى عن جانبَيْكَ الوساد

* * *

قلْ لمن جاءَ سائلا عن زميلٍ ... خَمَدَ اليَوْم فكرُهُ الوقّاد
طائرُ «المجمع» السَّعيدُ تهاوَى ... وارتمَى فى شِباكِنا (الصَّيّاد)

* * *

أيها الرَّاحلُ العزيزُ! لماذا ... طال بينى وبينك الميعاد ؟
آخِرُ الْعَهْدِ مِنْ لقائكَ أَنَّا ... اتَّعدْنا فلمْ يتمَّ اتِّعاد
لم يكُنْ يا أخى لنا ما أَرَدْنا ... ومَتى كانَ للورى ما أرادوا ؟
صُورٌ نحنُ فى الحياة ونمضى ... وكأنَّا نَقُودُ ، بَيْنَا نُقادُ ..
وشُخوصٌ تَبْدُو وتَخفَى سَريعًا ... وليالِى عُرْسٍ يَليها الحِدَادُ ..
وَممات يَحُلُّ فينا ، ويَمْضِى ... بالذى زَفَّهُ لنا الميلاد ..
هِىَ أنفَاسُنَا تَرَدَّدُ فينا ... فإِذَا آذنَتْ فلا تَرْدَاد

* * *

أيها الشَّاعرُ المودِّعُ ! قُلْ لِى ... أينَ راحَ الاباءُ والأجدادُ ؟
أينَ مَنْ كانَ قَبْلَنَا مِن أُناس ... وطَّدوا مُلكهم وشادوا ، وسادوا؟
طَحَنَتهم رَحَى الْمَنُون فأَضْحَوْا ... رَاحَ منهم طريفُهُمْ والتِّلاد

(مَدْينٌ) قدْ مَضَتْ لغير مَعادٍ　　و (ثمود) ولَّتْ ، وبادَت (عادُ)
عَصَفَتْ بالرِّجال والشِّعْر ريحٌ　　لمْ يَدُمْ (عَنتر) وَلا (شدَّادُ)!!

* * *

فَلَكٌ دائِرٌ يُحَــرِّكُهُ اللـ　　ـهُ فـلَمْ تَخْتَلِفْ بهِ الأَبْعَـادُ
ليس فيه نَقْصٌ على دَأْبِ السَّيْـ　　ـرِ ، وما فيهِ بالْمَـدَارِ ازدياد
كلُّ شيءٍ مُوقَّتٌ فيه ... حتى (الْـ　　ـكَوْنُ) فيه مُقَدَّرٌ و (الفساد) .
آهِ يارب قد قَضَيْتَ على النَّا　　سِ بآلامِهِمْ فَضَـاع الرَّشَادُ
وَقَسمْتَ الأَوجـاع قِسْمةَ رحْما　　نٍ ، فينا لمـا يشاءُ انقيـادُ
فلمـاذا يارب تنهَشُ فينا　　عِلَلٌ ما لَهَا بنـا تَعْـدادُ ؟
فجراثيمُ كُلهنَّ ضِـراءٌ ..　　وأبابيلُ كلهنَّ عِنـاد ..
وأباطيــلُ ما لهُنَّ زوالٌ　　وأحـابيلُ ما لهُنَّ نَفَـادُ
وأخيرًا نحنُ الضَّحايا بحرْبٍ　　كلهـا فى الحقيقة استشهاد
ربِّ عفوًا إن خانني أدبُ القو　　ل فقد كاد أن يضلَّ الفؤاد ..

* * *

يا صـديقى ! أضْنَاكَ داءٌ دوىٌّ　　حـارَ فيه الحُـذَّاقُ والروَّاد
فيه للجسمِ والْخَـلايَا افتراسٌ　　وبه للخـلائِقِ اسـتبداد ..
لمْ تزَلْ تشتكِى البريَّةُ منْهُ　　وتضج الأَرواحُ والأَجسـاد
احتملْتَ الآلامَ فيه بصـبرٍ　　لا يُدانَى ، وعزمة لا تُرادُ ..
فعَلَيْـكَ السَّـلامُ منَّا إلى أنْ　　يَتَـلاقى الرفَاقُ والأَنـدادُ ..
فى جنَـان قُطُوفُهـا دانياتٌ　　حانيـاتٌ وغُصْنها مَـيَّادُ ..
كلنا صائرٌ لمـا صِرْتَ ... لكنْ　　لمْ يَحِنْ حينُنَا ،وأنتَ المرادُ ..

* * *

نَحنُ فى حَلْبة السباق إلى المو   تِ جيـادٌ تكبو ، وتَأْتى جيادُ
كلُّ حىٍّ لَهُ عليها مَـدَارٌ   لا يُثَنَّى ، وَمَشْـهَدٌ لا يُعـادُ
جَذْوَةٌ للحيـاةِ ....لم يَبْقَ منها   بعـد ذاك البريق إلَّا رماد ...

* * *

أيُّهـا الدَّارسُ البلادِ بعِـلْمٍ   تتنَـاهَى فى قَبْضَتَيْهِ البلادُ !
فالفيـافى ممـدودةٌ لكَ ظِلاًّ   والرَّوَاسِى مبسوطةٌ والوِهَـاد
والمحيطـاتُ كلُّهَـا لَكَ دَانَت   لم يَغِبْ عن حِجَاكَ منها مُراد
وتقـاسيمُ أرضِـنا لك ذلَّتْ   فَهْىَ سَهْلٌ موطَّـأٌ ، ومهـاد
إن تَدَمْشَقْت فالغرامُ (دمشقٌ)   أو تَبَغْدَدْتَ فالهوَى (بغداد)!!

* * *

عجبًا ! قد طواكَ شبرٌ من الأر   ض ، وضمتك تحتها الأصلادُ
فانطوى عالمٌ من العلم والفَضْـ   ـلِ ، وولَّت كياسة وسداد ..

* * *

يا أخى ! لمْ تَمُتْ وذكْرُكَ باقٍ   ما تَوالَتْ من بَعـدِكَ الآماد
نحن - والله - ذاكروكَ وإن بِنْـ   ـتَ ، وطَـالَتْ ما بيننا الآباد
كيف يُنسَى ماضٍ جميلٌ وتُلْقَى   دُونَ ذكراكَ هذه الأسداد ؟
شَرَفُ الذكْرِ أنَّهُ سوفَ يَبْقَى   بَعْـدَ أصحابه وإن هُمْ بادوا
لم يَمُتْ مَن لَهُ على العلم فضلٌ   وأيادٍ مذكورةٌ ، وجهـادُ
كيف يَخفَى فضلٌ ، ويُطْمَسُ نُبْلٌ   ويُوارَى بَذْلٌ ، ويُطْوى امتدا ؟؟

* * *

الأستاذ محمد عبد الغنى حسن
عضو المجمع

كلمة الأسرة

للدكتور ناجى الصياد نجل الفقيد

سيدى الأستاذ الدكتور رئيس المجمع ، السادة الأعضاء الأجلاء ، سيداتى ، سادتى

أود لو أسعفنى البيان لأعبر لكم عن امتنان أسرة الفقيد لشعوركم الرقيق الذى دعاكم لإقامة هذا الحفل ، وإنى لأحسب أن كل ما يستطيع المرء أن يترك من ورائه هو ذكرى طيبة تعطر الأنفس بأثرها . لقد وفيتم الفقيد حقه فلم يبق لى إلا النزر اليسير ، ذلك هو تقديرنا العميق لمواساتكم الكريمة لنا .

وماذا أقول عن والدى الراحل ؟ وأنتم أعلم به منى ، وأدرى بأقداره العلمية والأدبية التى أهلته ليكون واحداً منكم وزميلا لكم فى مجمع الخالدين ، وهى منزلة سامية لم يبلغها أحد منكم على طريق سهل هين ، ولكن وصلتم إليهـا وأحرزتم شرفها بالجهـد والتعب والسهر والدراسة والبحث حتى كانت تتويجاً لجهودكم فى ميادين العلم والمعرفة وخدمة اللغة العربية .

سادتى لا أحسب أن فقيدكم وفقيدنا قد لقى وجه ربه الكريم إلا وهو راضى الضمير عن نفسه ، وحائز لرضاكم فى الميدان الذى اخترتموه من أجله ، وأظنكم لا تضنون عليه بالشهادة أنه أدى أمانة المجمع ، وخدمة رسالته فى ميدان الجغرافية ولغة الجغرافية وأدب الجغرافية .

أخلص الشكر للأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع ، فلن ننسى وقع كلماته فى نفوسنا كما أقدم جزيل شكرى لتفضل الأستاذ الدكتور سليمان حزين بتأبين الفقيد معبراً عن وفائه النادر له . كذلك أعبر عن عرفانى وتقديرى للأستاذ الشاعر محمد عبد الغنى حسن الذى كان لشعره فى رثاء الفقيد أبلغ الأثر فى نفوسنا وجعلنا نشعر بأن المصاب ليس مصابنا وحدنا والله أسأل أن يوفقكم فى خدمة العلم والوطن .

والسلام عليكم ورحمة الله

كلمة الختام

للدكتور رئيس المجمع

سيداتى سادتى

عوضنا الله خيراً ، وعوض أسرة الفقيد وأسرة المجمع خيرا فى فقيدنا العزيز ، وشكراً لمن أسهم معنا فى هذه الجلسة ، وشكراً لمن تفضلوا بالكلمات التى ألقوها وفاء للراحل الكريم

فى الســـاعة الحادية عشرة من صباح الأربعـــاء ٧ من رجب سنة ١٤٠٣ هـ ، الموافق ٢٠ من ابريل سنة ١٩٨٣ م ، اقام المجمع حفل تأبين لفقيده المرحوم الدكتور أحمد محمد الحوفى عضو المجمع ، وها هى الكلمات التى القيت فى الحفل :

١ ــ كلمــة الافتتاح

للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

فى تأبين المغفور له :

الدكتور أحمد الحوفى

سيداتى ساداتى :

نودع اليوم زميلا كريما ، ومؤمنا مخلصا وصديقا صدوقا ، هو المرحوم أحمد محمد الحوفى .

لقد كان رحمه الله مثالا للتخلق بأخلاق القرآن ، يجل الكبير ويعطف على الصغير ، يأخذ بيد الضعيف ويساعد المحتاج ملئ قلبه بالحب والمودة فلا يعرف الخلاف والشقاق ولا الشحناء والبغضاء ، وكانت نفسه تطيب دائما لدعوة الفهم والتفاهم والسلام والمسالمة ، وكأنما كان يرى أن من واجبه أن يحمل دائما راية السلام ، وما إن يحس بفرقة أو خلاف فى الرأى ، أو حدة غضب فى المناقشة ، حتى يبذل ما يبذل من تلطيف وتسكين وموادعة ، فــكان مسلما ومسالما حقا . أما أحمد الحوفى المجمعى فكان جم العطاء ، أعطى مجمعنا قبل أن نحظى بزمالته ، وله فى مجلتنا بحوث قيمة سابقة على عضويته ويوم أن انضم إلى زمرة الخالدين نما عطاؤه وتنوع ، فتابع مدده للمجلة وغذاها بغذاء يليق به .

واشترك فى كثير من لجان المجمع وأثبت أنه معطاء دائما لايتخلف عن لجنة إلا لضرورة ولا يفوته أن يسهم فى ما يجرى فيها من بحث ودرس وأخذ ورد .

وهكذا كان شأنه فى مجلس المجمع يحرص الحرص كله على شهود جلساته ويتابع فى عناية مناقشاته ، وبنظرته الخاطفة يفتح القاموس أو اللسان وتقدم ما يحل العقدة ويقضى على الخلاف . كان أدبيا ولغويا يؤمن بأن اللغة تسير وأن الأدب يتجدد وله فى الجديد الأخاذ مبتكرات ومستحدثات .

ولا أظنه تخلف عن مؤتمر من مؤتمراتنا العشر التى صاحبها ؛ اللهم إلا المؤتمر الأخير الذى قعد به مرضه عن متابعته .

وكم وددنا أن يمتد عطاؤه ولكن لا راد لقضاء الله . جزاه الله عنا جميعا خير الجزاء ،

رثــاء الفقيد

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

بسم الله الرحمن الرحيم: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموتِ، وإنَّما تُوَفَّوْنَ أجُورَكُم يَوْمَ القِيَامَةِ. فَمن زُحْزِحَ عَنِ النَّار وأُدْخِــلَ الجنَّةَ فَقَد فَازَ. وما الحيَاةُ الدُّنيَا إلا مَتَاعُ الغُرُور). صــدق الله العظيم.

سادتى، وزملائى:

شاء الله العزيز العليم أن تكون مرثيتى الشعرية لأخى وصديقى وزميلى: الدكتور أحمد الحوفى امتدادا واستمرارا لمرثيتى الشعرية لزميلنا ونائب رئيس مجمعنا: الدكتور أحمد عمار نظمتها من البحر ذاته، ومن القافية نفسها على غير خلاف: إلا ما كان من خلاف بين صورتى الرجلين الكريمين. فالخطب واحد، والأحزان ممتددة، والمرثيان كأنهما قصيدة واحدة.

ولقد شهد هذا المنبر الذى تنطلق من فوق أعواده أصوات أفراحنا وأحزاننا، وترن من فوقه أصداء التقائنا وفراقنا، شهد فى مثل هذا اليوم من الأسبوع الماضى وردد أصداء مرثيتى للدكتور أحمد عمار، وسيردد اليوم — وعما قليل — أصداء مرثيتى للدكتور أحمد الحوفى.

وقد كنت على نية أن أنظم القصيدتين، وأبنى المرثيتين على بحرين متغايرين، وقافيتين مختلفتين، كما تقضى أصول الرثاء ومواصفاته فى الشعر العربى، استقلالا لكل من الزميلين العزيزين بشخصيته ومرثيته ... ولكنى كأنى كنت نائما فصحوت، وغافلا فتنبهت ... وقلت لنفسى: إذا كان القدر الذى لا قدرة لنا على فهمه. ولا حيلة لنا فى دفعه، قد نظم وفاة الراحلين وخاتمة الحياتين فى سلك واحد وجمع الفجيعتين فى موعد يكاد يقع على توافق وتطابق مع فرق فترة من ليل أو ساعة من نهار فكيف يجوز لى أن أفرق بين الدمعتين وزنا وقافية؟. وكيف يصح لى أن أخالف عن المعنى الإلهى الحكيم فى هذه الواقعة، التى جمعت بين زميلين فى زمن الوفاة. ولحظة الوداع عقب أن إجتمعنا — فى مؤتمر مجمعنا السنوى أسبوعين كاملين شهدها معنافيها الدكتور أحمد عمار بشخصه وحضوره واشــترك معنا فيهما الدكتور أحمد الحوفى بفكره وتصوره وشعوره، لأننى كنت أمر عليه خلال أيام المؤتمر، أروى له بعض وقائعه، حتى لا يكون عنا بمعزل، وإن لم يكن عن غرض الحتوف بمعزل.

وما كنت أدرى أن القدر يخبأ للزميلين قدرا ويعد لها عن هذه الدنيا الدنية سفرا.

واليوم — وقد شاء الله أن يجمع بين (الأحمدين) فى توقيت الغاية ، وزمن النهاية فقد شاء لى قدرى الحزين أن أجمع بينهما فى وحدة المرثية ، ووحدة القافية واتحاد النغم وامتزاج الألم ، طردا للباب على وتيرة واحدة ... وما زلت أذكر — والذكرى تحز فى نفسى . وتعرقنى عرق المدى .. يوم أن استقبلنى (الحوفى) على منبر المجمع منذ خمس سنوات ، زميلا لكم مع الخالدين وأناب عنه فى إلقاء كلمة الاستقبال زميلنا الأستاذ « محمد شوقى أمين » بورك له فى عمره لغيابه عن مصر يومئذ.

وهأنذا اليوم — قياما بواجب الوفاء — ودع الدكتور الحوفى من هنا ، كما استقبلنى هنا . . . : وأقــول له اليوم : وداعا . كما قال لى منذ خمس سنوات : أهلا ومرحبا.

وهكذا الدنيا — ولا أزيدكم بها علما أيها الأعزاء — فراق ولقاء ، وأخذ وعطاء ودين واقتضاء.... وإليكم الآن — وبعد هذا المدخل بقية القطرات فى دمعة واحدة ساخنة ، سكبت أولاها ابتداء على الدكتور أحمد عمار ، وذرفت بقيتها انتهاء على الدكتور أحمد الحوفى ولعل القدر الرحيم يسالمكم ويسالمنى ، فيجعلها آخر الدمعات ونهاية الزفرات ... ولكنى أحس الدنيا تضحك منى وتقول : هيهات : هيهات !!

أطال الله أعماركم :

وأحاط باللطف الخفى أقداركم .

والآن إلى المرثية الشعرية .

دمعة على الزميل الصديق

الدكتور احمد الحوفى

قلْ لِمن بات واثقًا بالَّليالى : لا تثق فى سرابها الخـداع
إن تضق بالحياةِ يومًا خطانا فخطى الموت لمْ تزل فى اتساع
قد نفضْنا من « الطَّبيب » يدينا حين همَّ « الطَّبيب » بالإسْراع
وانْتبهْنا على مُصاب جديد وأفقْنا على جوى والتياع
وغدوْنا على فـؤاد معْنى بالمآسِى : وخاطِر مرتاع
فإذا (أحْمدُ) الأَديبُ يثنى بسمى له رقيق الطباع
وإذا (المجمع) المُوطد أمسى فى قِتالٍ مع الرَّدى وصِراع
كل يومٍ لنا دعائم رُكن متهاو ، وحائِط مُتداعى
ما الذِى قد دهى الجماعة حتى مُنيت كلُّ ساعة بانْصِداع ؟
حِكْمةٌ للقضاءِ يعْلمُها الله إذا ما دعا إلى الموت داع ؟
نحن فى موْكِب الْمُنايا صفوف نتلقَّى مصيرُنا فى انصِياع
فإذا اللَّحْظة الرَّهِيبة حلَّتْ عاد أمْر الحياة غير مُطاع
منْ تفته المنون فى بسْطة السهل ستأْتِيه مشرفًا باليفاع
إيه يا نفْس لا تراعى إذا فرَّق الْموتُ شمْلنا لا تراعى
فيم تخْشى ، وفى الرواية فصْلٌ سوف يأْتى ، وللمنْون دواعى
أجلٌ نحنُ مدركوه وإن طا ل مطال الجنى على الزراع
تتمادى الأَطْماعُ فينا على العيشِ وفى الموتِ مُنْتهى الأَطْماع
يا فقِيد النُّهى ويا دائِب الدَّرْس وجم الشُّعاعِ والإشْعاع
لك فى البحثِ منْهجٌ لمْ يُهيأ لِأَديب ، ولمْ يتح لصُنَّاع
رب معنى مُقنَّعٍ بتَّ تجلو فصيَّرْته بغير قِناع

يا مُجيد التَّأليف فى كل فن ... ومُديم البُقيا على الاطلاع !
ومذيبا عينيك فى خدمة «الضا ... د» ونهض بأمرها واضطلاع
ما عهدناك فى بُحوثك إلَّا ... مُستطيل المدى ، طَويلَ الباع
كم كتاب أَصْدرْتَهُ فَصدرْنَا ... منهُ عن مورد وعن إمْتَاع
تَشْبعُ النَّفْسُ فى رُكَاكه حين ... هو فى حاجة إلى الإشْبَاع . .
أوَلَمْ تَسْتَطِع على شِعْر (شَوْقى) ... كل ما كان ليس بالمستطاع ؟
أَنْتَ تَمَّمْتَهُ بِحُلْوِ اتباع ... ثم زَيَّنْتَهُ بِحُسْن ابْتِداع
يا صديقى الَّذِى التَقَانى بالأَمس ... زَميلًا ، فكان أَكْرم ساعى
كنتَ مُسْتَقْبلى على الأَمس حِينَ ... امتدَّ فى الخَالِدِينَ مد ذِراعى
لَسْتُ أَنْسى الْيدَ الَّتى طَوَّقَتْنِى ... بصَنيعٍ لمْ يمتحن بالضياع
أَنْتَ رشَّحْتَنِى و (مهْدِىٌّ)(1) زَكَّى ... فزَكَت مِنْكُما الْخُطَى والْمساعى
أَنَا لَوْلَاكُمَا لَكُنْتُ بَعِيدًا ... عَنْ بقَاعٍ أَكْرِمْ بها مِن بِقَاع
هِىَ دَارٌ لِلْخَالِدِينَ وَمَثْوَى ... لِرجَال الإنتَاجِ وَالإِبْدَاع
فإلى مَوجِهَا تَلَاطم مَوْجى ... وعَلى لُجّهاتِنَا هَى اطِّلَاعى . .
لمْ أُشَيِّعْكَ يا صَدِيقى وإنْ كُنْـ ... ـتَ تَكَبَّدْتَ لَوْعَة الْملْتَاع
كُنْت فى «الثغر» نَائِيًا عن رُبُوعِـ ... ـى وَعَلى (الرَّمْلِ) نازحًا عن رُبَاعِى
مُسْتَجمًا . . . أحط فى البَحْر رحلى ... وأُوَارى بشَطِّه أَوْجَاعِى
وَأَقَل الْوَفَاءُ نَحْوك أنى ... كُنتُ أَلقَاكَ سَاعَة الإقلَاع
يا صَدِيقى إِنَّ الأَمَانَة تَقْضى ... أَنْ نَرُد الصَّنِيع للصنَّاع
يَدُكَ اسْتَقْبَلَت يَدِى مُنذُ خمس ... فَتَقَبَّلْ مِنِّى يَدًا لِلْوَدَاعِ
قد طَوَى الْكَوْكَبَيْن فى الأَرْضِ طَاو ... وَنعى (الأَحْمَدَيْن) للكَوْن نَاع
وَعَلَى الْمَوعِد الْمُقَدَّر رَاحا ... فى لقَاءٍ موقت واجتماع
فَلَنَا الصبر فى الطَّبيب المولّى ... وَلَنَا الأَجْرُ فى الأَدِيبُ الْمُضاع

محمد عبد الغنى حسن
عضو المجمع

---

(1) هو الزميل الأستاذ الدكتور / محمد مهدى علام — الأمين العام .

٣ — كلمة الدكتور شـوقى ضيف

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الرئيس ، الزملاء الأجلاء ،

سيداتى سادتى .

كل حى إلى فناء وكل إنسان محمول يوما على آلة حدباء، يهلك الوالد والولد وتتعاقب الأرزاء ، وكان رزء المجمع فادحا حـين فقد فى يومين متتاليين العلمين الأحمدين ، عمارا والحـوفى ، وكأنما تواعـدا على الوداع مودعين الدار الفانية إلى الدار البـاقية . وجـزعت الأسرة المجمعية لرحيلهما على غـير انتظار ، واستسلمت لمشيئة الله . وهـل يملك الناس إزاء المـوت وسهامه المصوبة التى لا تخطىء إلا أن يستسلمـوا للقضاء ، وهـو استسلام يأتسى فيه كل إنسان بمن سبقه .

وما الحياة إلا آجال قدرت مهما طالت الأعمـار ، وما الناس فيها إلا كقافلة تتهيأ للرحيـل وكل متأهب ينتظر دوره وميقاته ، ولـكل موعده لا يتأخر عنه ولا يتقدم فى ساعة محـدودة ، بل فى لحظة مؤقتة ، لا مفر منها ولا معدى عنها ، سنة الله فى خلقه ، إذ كتب عليهم المـوت بعد الحياة ، يذوقونه راحـلا فى إثر راحل ولا مطمع لأحد فى بقاء أو دوام ، فالكل راحـلون ، والكل فانون . ومع أن أسرتنا المجمعية تؤمن بذلك أرسـخ الإيمان التاعت أفئدتها أحـر التياع حين لم تستطع تشييع الدكتور عمار إلى مثواه الأخـير ومع أننا شيعنا الدكتور الحـوفى لا نزال نستشعر عليه برحاء الحـزن لما أصاب المجمـع فى فقده من خسارة لغوية كبيرة وكان قد احتجب عنا أشهر مرض طال به وزرته ، وهو يحتمل وصبه ونصبه صابرا وتحدث معى وانتهى به الحـديث إلى ذكر مؤلفاته التى لم تطبـع ولا تزال فى طى الأدراج ، وكان بيده منها مخـطوط أطلعنى عـليه وسألنى أن أحمله عنه إلى دار المعارف،وحملته إليها وهـو فى المطبعة الآن فحتى الأنفاس الأخـيرة من حياته كان لا يزال مشغـولا بالتأليف والتصنيف وعرض جهـده العلمى فيه على الباحثين والدارسين .

والدكتور الحوفى من مواليد سنة ١٩١٠ بقرية ريفية قريبة من دمنهور ، اخـتلف فيها منذ نعومة أظفـاره إلى كتاب حفظ فيه القرآن الكريم ، وتحـول منه إلى مدرسة بدمنهـور ، حتى إذا أنهى تعلمه بها تطلعت نفسه إلى الالتحاق بدار العلـوم ، وانتظم فى مـدرستها التجهيزية التى كانت تعد

الطلاب لها إعداد حسنا ، وكان دائما فى السابقين المتفوقين من صفه أو فرقته ، ودخل دار العلوم وظل فيها متفوقا سابقا بين أترابه ورفاقه ، وتخرج فيها سنة ١٩٣٦ ، وكان السابق المجلى بين أقرانه وطمحت نفسه إلى بعثة إلى إنجلترا مثل كثيرين ممن نالوا قصب السبق فى التخرج بالسنوات الماضية ، ولكن الظروف لم تحقق له أمنيته ، فرفض أن يكون مدرسا فى وزارة التربية والتعليم ، وكأنما كان ذلك ملهبا لطموحه ، وإذا هو يعاهد نفسه أن يعب وينهل — ما استطاع — من العربية ، وأكب على كنوزها يتزود منها طوال عمله بمدارس الوزارة . وفى أثناء ذلك تعارفنا فى تصحيح مادة اللغة العربية لطلاب السنة النهائية بالتعليم الثانوى ، وكان قسم اللغة العربية بآداب جامعة القاهرة يشترك مع وزارة المعارف (التربية والتعليم الآن) فى الإشراف على هذا الامتحان ، ولفتنى إليه أن وجدت زملاءه من المدرسين يرجعون إليه فى مسائل اللغة والأدب يستفتونه فيما يختلفون فيه ، وما أن يدلى برأى له فى هذه المسألة أو تلك حتى يذعنوا لما يقول ، فعنده دائما الفتوى اللغوية السديدة .

وضمت دار العلوم إلى جامعة القاهرة فرأت أن تختار بعض خريجيها الممتازين علميا حتى يشاركوا مشاركة خصبة فى دورتها الجامعية الجديدة ويعظم فيها حصادها وإنتاجها العلمى ، واختارت الدار الفقيد مدرسا مساعدا بها سنة ١٩٤٨ ووجدت فيه ما خالته عنده من الدأب العلمى والعكوف على الدرس والبحث فأهلته سريعا درجة الماجستير الممتازة وبعد عامين أهلته درجة الدكتوراه الممتازة ، وأخذيتدرج فى وظائف التدريس بالدار حتى أصبح رئيسا لقسم الدراسات الأدبية بها ، حتى إذا بلغ الستين من عمره عين أستاذا غير متفرغ إلى أن اختاره الله إلى جواره :

وكان الدكتور الحوفى طوال محاضراته بكلية دار العلوم قريبا من نفوس طلابه لا يجدون فيه الأستاذ المحاضر فحسب بل يجدون فيه أيضا الأب الشفيق الحانى والموجه المسدد لخطاهم . وكان أهم ما يعنيه أن يغرس فى نفوس طلابه محبة العربية ومثل الإسلام الرفيعة . وكان الطلاب يشغفون بمحاضراته لما يعرض فيها من نظرات نقدية مصيبة ، ولحسن أدائه وبيانه . وأجيال كثيرة تخرجت على يديه ومضت تعلم العربية فى المدارس بمصر وبلدان العالم العربى . وكثيرون — يعدون بالعشرات مصريين وعربا — ظفروا بإشرافه على رسائلهم الجامعية للحصول على درجتى الماجستير والدكتوراه ، وكان لا يضن عليهم بإرشاد وتوجيه كما كان

لا يضن عليهم بتشجيع ، بل كان يغدقه عليهم — إذا استحقوه — إغداقا .

وقد اشتركت معه فى غير مناقشة بآداب جامعة القاهرة ، ولاحظت فى مناقشاته رفقه بالطلاب وهو يحاورهم فى جوانب من رسائلهم ، حتى ليفتح لهم الأبواب كى يتبينوا الإجابة الصحيحة ، وكان يبلغ أحيانا من الرفق بهم ما يجعلنى أشعر كأنه يريد أن يمد إليهم يده ليأخذ بأيديهم وخاصة حين يحتدم الحوار . ولم يقف الدكتور الحوفى بهذا النشاط العلمى المتصل عند جامعاتنا المصرية ، فقد مده إلى جامعتى الرياض وبغداد معارا وإلى جامعات طرابلس وأم درمان والملك عبد العزيز بالسعودية زائرا ، وبذلك عم علمه وفضله غير جامعة عربية . ولا يقل جهد الدكتور الحوفى الخصب فى التأليف عن جهده فى المحاضرات الجامعية بل لعله أغزر وأوفر ، فقد كان فيه دائما طامحا غير قانع ولا مكتف ، فكان إذا ألف كتابا لم يكتف به ولم يقتنع ، بل طمع أن يؤلف كتابا خيرا منه وطمع أن يكون الكتاب الجديد أكثر فائدة وإمتاعا ، وظل على ذلك دائما طامعا طامحا لا يكفيه كتاب ولا يقنعه ، مما جعل مؤلفاته تتكاثر حتى تبلغ ما يقرب الثلاثين عدا . وقد نوعها تنوعا واسعا ، ويمكن أن نوزعها على خمس دوائر كبيرة : الدائرة الأولى دائرة الأدب العربى القديم ، وله فيها ثمانية مؤلفات ، منها أربعة تتناول الشعر الجاهلى ، هى الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، المرأة فى الشعر الجاهلى ، الغزل فى العصر الجاهلى ، أغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى . ووراء هذه الأربعة أربعة أخرى ، منها مؤلف عام عن تيارات ثقافية بين العرب والفرس منذ الجاهلية إلى زمن العباسيين ، وثلاث تتصل بالأدب الإسلامى ، هى : بلاغة الإمام على — أدب السياسة فى العصر الأموى — الخطابة السياسية فى العصر الأموى .

والدائرة الثانية فى مؤلفات الدكتور الحوفى دائرة الأدب الحديث ، وله فيها أربعة كتب هى القومية العربية فى الشعر الحديث ، وطنية شوقى ، الإسلام فى شعر شوقى ، النسيب فى شعر شوقى . وواضح أن « شوقى » حظى بالنصيب الأكبر من دراسة الدكتور الحوفى للأدب الحديث إذ كان يعجب به منذ بواكير حياته . والدائرة الثالثة فى مؤلفات الدكتور الحوفى دائرة التراجم وله فيها أربعة مؤلفات ، هى : الجاحظ — الطبرى — أبو حيان التوحيدى — الزمخشرى وهو فيها جميعا يعرض العصر والبيئة والسيرة والثقافة وشيوخ المترجم له وتلاميذه وآثاره وآراءه مع تحليل شخصيته الأدبية والعلمية .

والدائرة الرابعة فى مؤلفات الدكتور الحوفى الإسلام ، وله فيها خمسة مؤلفات هى: من أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم ، الجهاد ، سماحة الإسلام ، تحت راية الإسلام ، مع القرآن الكريم فى جزءين . وهو فى هذه المؤلفات يتحدث عن مُثل الإسلام العليا وما بث فى النفوس من أخوة وسماحة ونبل وخلق قويم وجهاد لأعداء الله ، كما يتحدث عن إعجاز القرآن وبلاغته الباهرة التى ليس لها سابقة ولا لاحقة فى تاريخ الإنسانية

والدائرة الخامسة فى مؤلفات الدكتور الحوفى كتب متنوعة ، منها البطولة والأبطال ، الفكاهة فى الأدب العربى ، مع ابن خلدون ، حصاد القلم .

وقد توج الدكتور الحوفى هذه المؤلفات والكتب بإخراجه لديوان شوقى فى مجلدين كبيرين ، وقد بوبه تبويبا جديدا وفقا للأغراض المتنوعة التى نظم فيها شوقى وشرح كثيرا من ألفاظ الديوان شرحا دقيقا ، وعرف بما ورد فيه من أعلام تعريفا وافيا ، وذكر مع طائفة كبيرة من قصائده مناسبات نظمها ، وأضاف إلى طبعته قصائد لشوقى لم تنشر فى طبعتى الديوان السابقتين ، وقوّم ما وقع فى هاتين الطبعتين من أخطاء سواء فى الشرح لبعض الألفاظ أو فى ضبط الكلمات ، ونصّ على ما فى شعر شوقى من صيغ لم تثبتها المعاجم اللغوية . ورتب القصائد فى الأغراض المتنوعة بترتيب أبجدية القوافى . وألحق بالديوان فهارس مفصلة موسعة .

وحتى الآن لم أتحدث عن الدكتور الحوفى المجمعى ، وقد بزغ نجمه فى المجمع منذ سنة ١٩٧٣ وأرهص الدكتور إبراهيم أنيس — رحمه الله — فى حفل استقباله بما ينتظر المجمع منه لسعة علمه باللغة وخاصة ما يتصل منها بتحديد دلالات الألفاظ المجردة التى يفهمها الناس فهما تقريبيا أو مقاربا ، يقول : « لما ألفت منذ ما يقرب من عشرين عاما كتابا فى دلالة الألفاظ كان على أن أتصل بأمثال الدكتور الحوفى وأن أوثق صلتى بهم ، حتى أستطيع تحديد المعنى تحديدا دقيقا لبعض الكلمات ذات الدلالات المجردة من مثل السماحة — الكياسة — العفة النزاهة — الإخلاص — الوفاء . وأوشكت دلالاتها بعد ذلك أن تصبح فى ذهنى دلالات حسية ، لأنها تمثلت أمامى فى صورة حية وتلك سجية بين السجايا يتحلى بها أمثال الدكتور الحوفى »

وقد أخذت تتجلى — بوضوح — هذه السجية أو هذه الحاسة اللغوية فى بحوث الدكتور الحوفى بالمجمع ومؤتمره ومجلسه ولجانه ، وهى حاسة لا تنشأ عفوا ، وإنما تنشأ عن قراءة مرددة فى نصوص العربية وفقه باللغة وصياغاتها وبصر بدقائقها وأوضاعها .

وكلنا نذكر جولاته اللغوية وما كان ينفذ إليه من تبين للدلالات بعض الألفاظ تبينا سديدا ورسمه لمعانيها رسما محددا دقيقا، وكان حصاد لجنة الألفاظ والأساليب منه غزيرا، إذ كان كثيرا ما يختار لها ألفاظا وصيغا تشيع في الكتابات العصرية، ويظن أنها نابية عن الفصحى، وكان يظل يدرسها ويعرضها على تصاريف العربية واشتقاقاتها حتى يجدلها تخريجا لغويا قويما ينفي عنها الشبهة في انحرافها عن جادة الفصحى مثبتا أنها تمت إلى لغة الضاد بوشائج نسب وثيقة :

أيها السادة .

كان الدكتور الحوفي — بجانب كل ما قدمت من نشاطه العلمي الواسع — يشارك بعضويته في كثير من المجالس والهيئات واللجان والمؤتمرات الإسلامية سوى مقالاته الضافية في الصحف والمجلات أسبغ الله رحمته عليه وعلى الزميل الدكتور عمار وعلى من سبقوهما من الزملاء الأخيار، وأنزلهم جميعا منازل العلماء الأبرار . والسلام عليكم ورحمه الله .

٤ — كلمة الأسرة

للدكتور أسامه الحوفي

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ/ الدكتور رئيس مجمع اللغة العربية ، السادة الأجلاء أعضاء المجمع الموقر.

سيداتي وسادتي المشاركون في مواساتنا في فقيدنا الراحل .

لقد مضت أعوام كثيرة ونحن نشعر أن المجمع الموقر هو العائلة الكبرى لفقيدنا فقد كان دائم التحدث عنه والابتهاج بالمشاركة في نشاطه .

ومنذ مرضه الأخير قام لنا الدليل على أن هذه العائلة الكبرى، عائلة مجمعكم الموقر شديدة العطف والرعاية لفقيدنا العزيز فما يمر يوم من غير أن يكون من عائلة المجمع من يسأل عن صحة الوالد العزيز بالتليفون أو بالزيارة، وها أنتم الآن تتوجون رعايتكم للفقيد بإقامة هذا الحفل الذى أتقدم بشكرى لكم جميعا عليه وأخص بشكرى الأستاذ الدكتور رئيس المجمع والدكتور شوقى ضيف لما وصف وصدق . وللشاعر الأستاذ محمد عبد الغنى حسن الذى واسى فأبكى . سيدى الرئيس فى خشوع وتبجيل أكرر شكر أسرة الفقيد العزيز الدكتور أحمد الحوفى :

أطال الله بقاءكم ووقاكم كل مكروه .

وسلام عليكم ورحمة الله

٥ ـ كلمة الختام

للدكتور ابراهيم مدكور

رئيس المجمع

سيداتى : : : .سادتى . وشكرا لكم جميعا على مساهمتكم ومشاركتكم ،

رحم الله فقيدنا وعوضنا فيه خيرا ورفعت الجلسة